

أحمد أمين

# المهدي والمهدوية





# المهدي والمهدوية

تأليف  
أحمد أمين



# المهدي والمهدوية

أحمد أمين

الناشر مؤسسة هنداوي  
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

بورك هاوس، شبيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة  
تلفون: +٤٤ ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢  
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org  
الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠ ٤٠٣ ١

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥١.  
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة  
المشاع الإبداعي: تَسْبُّبُ المُصْنَفِ، الإصدار ٤٠. جميع حقوق النشر الخاصة بـ تصميم الغلاف  
الأصلي خاضعة لملكية العامة.

# المحتويات

٧	مقدمة
٩	أول ظهور فكرة المهدية وتطورها
١٣	الفاطميون
٢٥	الموحدون
٢٩	القرامطة
٣٥	الحشاشون
٣٩	ثورة البساسيري
٤١	البابية
٤٧	القاديانية
٥١	السنوسية
٥٣	مهدى السودان
٥٧	خاتمة



## مقدمة

# بِقَلْمِ أَحْمَدَ أَمِينَ بَكَ

القاهرة يونيـه سـنة ١٩٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فكرة المهدى والمهدوية لعبت دوراً كبيراً في الإسلام من القرن الأول إلى اليوم. وسبب نجاحها يرجع إلى شيئين: الأول أن نفسية الناس تكره الظلم وتحب العدل، سنتهم في جميع الأزمنة والأمكنة، فإذا لم يتحقق العدل في زمنهم لأى سبب من الأسباب اشرأبـت نفوسهم لحاكم عادل تتحقق فيه العدالة بجميع أشكالها، فمن الناس من لجأ إلى الخيال يعيش فيه وألـفـ في ذلك اليوتوبـيا أو المدن الفاضـلة على حد تعبير الفارابـيـ، وخلقـ من خيالـهـ دـنـيـاـ وـنـظـاماـ عـادـلـاـ كلـ العـدـالـةـ، خـالـيـاـ مـنـ الـظـلـمـ كلـ الـخـلـوـ، وـعـاـشـ فـيـهـ بـخـيـالـهـ يـنـعـمـ بالـعـدـلـ الـخـيـالـيـ، فـقـدـ روـىـ لـنـاـ فـيـ الشـرـقـ وـالـغـربـ يـوـتـوـبـيـاتـ كـثـيرـةـ عـلـىـ نـمـطـ جـمـهـورـيـةـ أـفـلاـطـونـ.

ومنهم من نزع إلى الثورة يريد رفع هذه المظالم وتحقيق العدالة الاجتماعية في الدنيا الواقعة، فلما عجزوا عن تحقيقها أملواها، وإذا جاءت هذه الفكرة عن طريق الدين كان الناس لها أكثر حماسة وغيرة وأملاً، فوجدوا في فكرة المهدى ما يحقق أملهم؛ ولذلك كثرت هذه الفكرة في الأديان المختلفة من يهودية ونصرانية وإسلام؛ فاعتقد اليهود رجوع إيليا

واعتقد المسيحيون والمسلمون رجوع عيسى قبل يوم القيمة يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً. ولعلهم رمزوا إلى العدالة بال المسيح وإلى الظلم بالسيخ الدجال، وسلطوا المسيح على المسيح فقتله إيماءً بأن العدل يسود والظلم يموت وفقاً للأمل.

والثاني أن الدنيا في الشرق والغرب مملوئةً ظلماً، وذلك في كل العصور، وقد حاول الناس كثيراً أن يزيلوا الظلم عنهم، ويعيشوا عيشة سعيد في جو مليء بالعدل فلم يفلحوا، فلما لم يفلحوا أملوا فكان من أملهم إمام عادل، إن لم يأت اليوم فسيأتي غداً، وسيملأ الأرض عدلاً، وستتحقق على يديه جميع الآمال.

وكانت فكرة المهدية تحقق هذين الغرضين، وقد سادت الشرق أكثر مما سادت الغرب؛ لأن الشرقيين أكثر أملأ، وأكثر نظراً للماضي والمستقبل، والغربيين أكثر عملاً وأكثر نظراً إلى الواقع، فهم واقعيون أكثر من الشرقيين؛ ولأن الشرقيين أميل إلى الدين، وأكثر اعتقاداً بأن العدل لا يأتي إلا مع التدين. ففكرة المهدية فكرة دينية تتمشى مع هذه الأغراض.

أردت أن أشرح هذه الفكرة وأتبع تاريخها من أول عهدها بها، فكان هذا الكتاب. والله نسأل أن يوفقنا إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل.

## أول ظهور فكرة المهدية وتطورها

كلمة المهدي في الأصل كلمة بسيطة، وهي اسم مفعول من هدى يهدي، فكل من هداه الله فهو مهدي. وقد استعملت في هذا المعنى أيام النبي ﷺ. فجاء بهذا المعنى الحديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»، وليس في هذا المعنى إلا المعنى اللغوي للكلمة؛ وعلى هذا جاءت الكلمة في شعر حسان بن ثابت شاعر الرسول، إذ يقول في رثائه ﷺ:

ما بال عينك لا تنام كأنما  
كحلت مأقيها بكحل الأرمد  
جزعاً على المهدى أصبح ثاوياً  
يا خير من وطئ الحصى لا تبعد  
بأبى وأمي من شهدت وفاته  
في يوم الاثنين النبى المهدى

وقد مدح الفرزدق سليمان بن عبد الملك، فقال:

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدى قد وضح السبيل

وقال في هشام بن عبد الملك:

فقلت له: الخليفة غير شك هو المهدى والحكم الرشيد

و كذلك في شعر جرير. ثم بدأت الكلمة تتحول شيئاً فشيئاً، فخصوا اسم المهدى بعلي وحده، وجاء في كتاب «أسد الغابة» أنهم أطلقوا على علي «هادياً مهدياً». ثم أطلقوا الكلمة على الحسين بعد مقتله، فقالوا: المهدى ابن المهدى.

ولما قتل الحسين ومات الحسن رأت طائفة أنه من الطبيعي أن يرث علياً معنوياً ابنه محمد ابن الحنفية، كما رأى غيرهم أن الوارث على هما الحسن والحسين فقط؛ لأنهما وحدهما أبناء علي من فاطمة بنت الرسول ﷺ. أما ابن الحنفية فابن علي لكن لا من فاطمة، بل من امرأة من بني حنفية صلبيبة أو ولاء على اختلاف العلماء في ذلك. وكان محمد ابن الحنفية هذا – وهو ابن علي كما ذكرنا – عالماً كثير العلم روحانياً، ورث الروحانية من أبيه، قوي الجسم. كان يبعث به أبوه إلى القتال نيابة عنه أكثر مما يبعث الحسن والحسين، فقيل له في ذلك، فقال: «إن الحسن والحسين عيناً على وأنا يده، فهو يدأ عن عينيه بيده».

ويحكون أن ملك الروم في عهد معاوية كتب إليه أن يختار أقوى من عنده ليصارع أقوى من عنده، وقال ملك الروم: «إن هذا جار بين ملوك الروم وملوك العرب من عهد بعيد»، وكانت المسابقة تدور حول أطول رجل عربي وأطول رجل رومي، ثم أقوى رجل عربي مع أقوى رجل رومي، فاستشار معاوية عمرو بن العاص، فأشار عليه في الطول بقيس بن سعد بن عبادة، وفي القوة بأحد رجلين: إما عبد الله بن الزبير، وإما محمد ابن الحنفية. فاختار معاوية محمدًا؛ لأنه أقرب إلى نفسه وأكثر اطمئنانًا له. وذلك بالمسابقات التي تعمل اليوم في الألعاب الأولمبية.

وقد امتنع محمد ابن الحنفية عن مبايعة عبد الله بن الزبير، وقال له: «لا أبايعك حتى تجتمع لك البلاد، ويتفق عليك الناس»، فأساء جواره وحصره وأذاه، فاضطر أن يهرب من مكة مع بعد أصحابه.

ونشأت فرقة تسمى الكيسانية نسبة إلى كيسان، يتزعمها المختار بن أبي عبيد الثقفي. وزعم هو وفرقه أن محمد ابن الحنفية هو الإمام وهو المهدي، ولكنه نقل كلمة المهدي إلى معنى آخر لزتها إلى اليوم؛ وهو أن هذا المهدي لم يمت، وإنما هو وأصحابه يقيمون في جبل رضوى، وهو في الحجاز على سبع مراحل من المدينة. وأنه وأصحابه أحياء يرزقون، وعنه عينان نضاختان تجريان عسلاً وماء؛ لأنه يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً.

ومن هنا ليست الكلمة معان أخرى، فمن جهة التصقت بالشيعة وهم الذين استخدموها على هذا المعنى في الأيام المقبلة، ومن جهة أخرى أضيفت إلى كلمة المهدي كلمة «المنتظر» فلزمتها، وأصبح يقال دائمًا: «المهدي المنتظر».

وكان هذا سبباً في أن إذا الشيعة أخفوا إمامهم عن عيون الأمويين والعباسيين خوفاً من قتله، لم يقولوا بموته ولكنهم كانوا يقولون عليه: «مهدي منتظر، يرجع إذا جاء ميعاد خروجه المقدر، فيخرج الناس معه ويزيل المظالم، ويتحقق العدل». وكان كثيرون عزّة الشاعر المشهور يعتقد هذه العقيدة. وليس هنا كبير رابطة بين شعره الجيد في عزة وضعف عقله في عقيدته؛ فقال:

وسيط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء  
تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عندهم عسل وماء

وشاعت هذه العقيدة بين الشيعة، فكانوا من حين لآخر يخرجون ثائرين يطلبون الملك باسم المهدى.

ولما تحالف العلويون والعباسيون أولاً على قتال الأمويين ظهر السفاح بنظرية جديدة؛ وهي أن محمد ابن الحنفية بايع ابنه أبا هاشم، وأن أبا هاشم هذا بايع السفاح، ثم من بعده المنصور فلم يثر عليهم العلويون؛ لأنهم اعتقدوا أن أمرهم هذا هين، فإذا هم تغلبوا عليهم على الأمويين، فأمر هؤلاء العباسين يسير، ولكن خاب فالهم؛ فما إن ولي السفاح حتى نكل بالأمويين والعلويين جميعاً، وفاز بتأسيس الدولة العباسية، فجاء من بعده المنصور، واستغل شيوخ كلمة المهدى عند الناس واعتقادهم فيها فلقي ابنه بالمهدي على أساس هذه الفكرة، ودعا إليه على أنه المهدى المنتظر ليحيط الخلافة بالسلطان الدنيوي والتقديس الدينى، وجعله ولي عهده.

وكان تأسيسه للدولة العباسية على أساس ديني بتلقى ابنه هذا بالمهدي وتسمية أم المهدي بأم الخلفاء، تشبّهاً باسم أم المؤمنين، وتسميتها بدار السلام تشبّهاً باسم الجنة، وتسميتها أحد قصوره بقصر الخلد، تشبّهاً باسم الجنّة أياًً، وجعل باباً قصيراً لا يدخله إلا من احنى كأنه راكع تعظيماً له، وتتكليفه بعض الفقهاء أن يضعوا الأحاديث في مدح العباسين ومدح النبي، ووصفه بصفات تنطبق على ابنه المهدى. وكان المهدى نفسه ذا هلوسة دينية، يظهر ذلك في كثير من تصرفاته، وخصوصاً إمعانه الشديد في محاربة من سماهم الزنادقة، وتقسيمهم وقتلهم وظهوره بمظهر حامي الدين والمدافع عنه، وسميته لولديه باسم الأنبياء موسى وهارون، وتلقى ابنه موسى بالهادى، ولما يئس من تسمية هارون بالمهدي؛ لأن لقبه هو المهدى، لقبه بالرشيد، وهي كلمة مساوية للمهدى بمعناها الأول وهكذا.

وتضخت كلمة المهدي في المغرب على يد الباربرة، فقد ضاقوا ذرعاً بظلم الحكام وتعصباً ضد عصبية غيرهم، وإن كانوا أيضاً قد تعصباً للإسلام، وأذاقهم بنو الأغلب من العرب سوء العذاب؛ ففرضوا عليهم الضرائب الكثيرة التي لا قدرة لهم عليها، حتى ضجوا بالشكوى فلم يسمع لهم فانتهز الشيعة هذا الوضع، ودعوا للاستقلال عن الدولة العباسية، وأذاع الشيعة فيها فكرة المهدي ووضعت الكلمة على لسان رجل ماهر اسمه أبو عبد الله الشيعي. يدعوا للمهدي المنتظر ويبيث فيهم مذهب الإسماعيلية، ويحمسهم للحرب، فقاتلوا قتالاً شديداً، وأخيراً تغلبوا على عمال العباسيين وطردوهم، وأخضعوا أكثر بلاد المغرب لحكمهم، وضربوا السكة باسمهم، فجعلوا على أحد وجهي النقد «بلغت حجة الله»، وعلى الوجه الآخر «تفرق أعداء الله» وعلى السلاح «عدة في سبيل الله»، ووسموا الخيل بعبارة «الملك لله».

## الفاطميون

وظهر عبيد الله الملقب بالمهدي المنتظر، ثم نكل بالداعي وهو أبو عبد الله الشيعي كما نكل المنصور بأبي مسلم الخراساني وكما نكل الرشيد بالبرامكة. ثم أسس المهدي بلدة تسمى المهديّة نسبة إليه، وادعى هو وأبناؤه أنهم الخلفاء الصالحين دون العباسين، وقال شاعرهم:

لقدومه أركان كل أمير  
أمنت مغاربها من المقدور  
أرجاهم للعسر والميسور  
هذا أمير المؤمنين تضعضعت  
هذا إمام الفاطمي ومن به  
يا من تخير من خيار دعاته

ومن نسل المهدي هذا كان المعز لدين الله الذي فتح مصر على يد جوهر الصقلي، وأسس القاهرة وسمها المعزية. وقد أقام هؤلاء الفاطميين في مصر حضارة عظيمة، ونشروا فيها التشيع وظلوا قرونًا حتى أزال ملوكهم صلاح الدين الأيوبي.

وأنقسم المؤرخون من العرب والمستشرقين من الفرنج إلى قسمين: قسم يصح نسبتهم إلى فاطمة، وعلى رأسهم ابن خلدون مدعياً أن الشراك إنما نفوا صحة نسبتهم تملقاً للعباسيين. وقسم يشك في نسبهم هذا معتمداً على ما روی من بعض الأقوال. وكانت الدولة الفاطمية مصطبغة بالصبغة الالهوية، نقرأ في ثانياً سيرة خلفائهم ما لا نجد مثله في ثانياً سيرة الأمويين والعباسيين، وربما كان هناك كتابان كبيران يمثلان هذه التزعة الإلهية، الأول ديوان ابن هانئ الأندلسى، فإنه أول مملوء بالمصطلحات الإسماعيلية كالدعوة والداعي كقوله:

أنت الورى فاعمر حياة الورى      باسم من الدعوة مشتق

ومثل كلمة العهد والتأويل والوصي ونحو ذلك، وفي الديوان نرى أصول الدعوة الشيعية؛ مثل ضرورة وجود الإمام في كل عصر، سواء كان ظاهراً أم مخفياً، وإن هذا الإمام لا بد منه لحفظ الشريعة، وتدبير مصالح الأمة كقوله:

فلا بد فيها من دليل مقدم  
فلا بد فيها من وسيط مترجم  
ولكنها لم ترس من غير معلم  
والعقل رشدًا والقياس دليلاً  
وتزايلت أركانها تزييلاً

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها  
إذا كان تفريق اللغات لعلة  
وآية هذا أن دحا الله أرضه  
لولاك لم يكن التفكير واعظًا  
لو لم تكن سكن البلاد تضعضعت

ومثل الدعوة إلى الإمام علة وجود الدنيا، كما يقول:

ولعلة ما كانت الأشياء      هو علة الدنيا ومن خلقت له

\* \* \*

بدأ الإله وغيبها المكنون  
أم الكتاب وكون التكوين

هذا ضمير النشأة الأولى التي  
من أجل هذا قدر المقدور في

وهذا الإمام جامع لجميع الفضائل والخيرات، جسده مبراً من كل عيب وروحه سالم  
من كل نقصان، كما يقول:

فرغ الإله له بكل فضيلة      أيام آيات الكتاب تفصل

\* \* \*

روح هدى في جسم يمده      شعاع من الأعلى الذي لم يجسم

وهذا الإمام أمين الله وهادي الخلق ووارث الأرض وشفيع الناس، وفي ذلك يقول:

هذا أمين الله بين عباده  
هذا الشفيع لأمه نأتي به  
وببلاده إن عدت الأماء  
ووجوده لجذودها شفاء

وهذا الإمام معصوم كالنبي لا يتصور من أذى، ولا تبدو منه زلة؛ لأنه ملهم من الله  
بأعظم درجات الإلهام:

من كان سينا القدس فوق جبينه  
مؤيد باختيار الله يصحبه  
فأنا الضمين بأنه لا يجهل  
وليس فيما أراه الله من خلل

وتجب معرفة الناس للإمام، فجهله جريمة لا تغفر ويروون حديثاً: «من مات ولم  
يعرف إمام زمانه فقد مات ميتةً جاهليةً». ونفوسهم لا تنجو إلا بمعرفته:

ليعرفك من أنت منجاته  
فرضان من صوم وشكراً خليفة  
إذا ما اتقى الله حق التقى  
هذا بهذا عندنا مقرون  
لم يغرن إيمان العباد فتيلاً  
لو لم تكن سبب النجاة لأهلهما

وقد غلو في هذا الإمام غلواً كبيراً، فقال ابن هانئ مثلاً:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار  
فاحكم فأنت الواحد القهار

ويقول:

لو كان علمك بالإله مقسماً  
لو كان لفظك فيهم ما أنزل القرآن  
في الناس ما بعث الإله رسولاً  
آن والتوراة والإنجيلاً

وأما الكتاب الثاني فرسائل إخوان الصفا فقد بنيت على أساس نظرية الفيوض  
الإلهي، وأن الله يفيض من نوره على من يشاء من عباده وأن فيضه على الأئمة أقوى  
فيض، وهي النظرية التي قال بها أفلاطون وحورتها الأفلاطونية الحديثة، وقالوا: إن

لهذا الفيض مظاهر دورية ظهرت في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، واختتمت بالإمام ولهم في عدد السبعة هيا مأوهام.

وتتجلى الروح الإلهية في درجات مختلفة ومراحل متواتلة، وتظهر للإنسانية منذ بدء خلقها متدرجة نحو الكمال، حتى جاءت إلى محمد ﷺ، وبهذا المعنى يأتي المهدى برسالة تفوق من قبله حتى رسالة محمد.

ويجب أن يفسر القرآن على أن له باطنًا غير الظاهر، والظاهر إنما يصلح لقوم لم يكتمل نضجهم بعد، إنما الخاصة هم الذين يفهمون المعنى الباطن، حتى إن الإمام إسماعيل كان يشرب الخمر فأنكر عليه ذلك بعض أصحابه وقالوا له: إن القرآن يقول بتحريم الخمر، ففسر آية الخمر تفسيرًا مجازيًّا، وكذلك فعل في الفرائض الأخرى كالصوم والحج، وبذلك تحلوا من الشرائع الإسلامية.

وغلا كذلك إخوان الصفاء في الحروف فزعموا أن للحروف أسرارًا دالة على معان، وأن هذه الحروف يمكن أن يفهم منها ميعاد ظهور المهدى، واستندوا فيها على قوله تعالى: ﴿وَعِنْهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، ومع أن الآية تدل على عدم معرفة أحد للغيب فقالوا: إن الله تجلى بعلمه على من يشاء من عباده، وقد روى عن الكندي الفيلسوف رسالة تتضمن دالة الحروف وأسرار الأعداد، وذكروا في إخوان الصفاء أن ظهور المهدى المنتظر يتوقف على حركات النجوم وقراناتها، مقلدين في ذلك اليهود في قولهم: إن موعد ظهور المسيح يتبع القيمة العددية لكتمي «هستير استير». وقد شاع بين الباطنية وغيرهم ارتباط حركات الأرض، وأحداث الكون بحركات النجوم حتى إنه لا يحدث حدث في الأرض إلا بقرانات في نجوم السماء، ووضعوا في ذلك علىًّا سموه علم اليازوجة، فما يحدث للإنسان من سعادة وشقاء وغنى وفقر، فإنما مرجعه إلى حركات النجوم والقرانات.

وقال قوم معتدلون: إنه لا يخفى أن للنجوم والكواكب تأثيرات في الأرض وفي الإنسان من طريق غير مباشر، فالشمس مثلًا تؤثر في الموسمن من صيف وربيع وخريف وشتاء، والقمر مثلًا يؤثر في حركات المد والجزر، وهذه كلها تؤثر في مزاج الإنسان، ولكن إذا أنسنت هذه الأمور وتعقدت إلى قرانات، فقد يحدث أن عمر الإنسان ينتهي من غير أن يحصل قران للنجوم على شكل خاص، فكيف يمكن بناء الأحداث على الاستقراء الناقص، ولا يزال الناس إلى يوم القيمة يتعلقون بهذا النحو من النجوم، وتأثيرها لما ركب في غريزتهم من حب الاستطلاع، وهم يسندون الغنى والفقير أو السعادة والشقاء

لولادة الشخص في طالع من طوالع النجوم، مع أنها نجد أشخاصاً كثيرين ولدوا في وقت واحد وطالع واحد، وبعضهم سعيد وبعضهم شقي، وبعضهم فقير وبعضهم غني، ولكن مهما قامت الأدلة فالنفوس البشرية هي هي، تميل دائمًا إلى حب الاستطلاع.

ومن مظاهر هذه النزعة الدينية في الدولة الفاطمية تنظيمهم شأن الدعوة والدعاة، وإعلاء شأن داعي الدعاة، ويقول المقرizi: إن الدعوة كانت مرتبة على منازل، دعوة بعد دعوة، فالدعوة الأولى مبنية على إثارة المشكلات وتأويل الآيات، وتعليمهم أن الدين مكتوم، وأن الأكثر له منكرون وأن لا سبيل للنجاة إلا ما خص الله به الأئمة من العلم، فإذا علم الداعي منه الإقبال والتشوق قرر له أن الآفة التي نزلت بالأمة، وشتت كلمتهم وأورثتهم الأهواء المضلة هي إعراض الناس عن أئمة نصبووا لهم، وأقيموا حفاظاً على الشرائع، ولما نظر الناس في الأمور بعقولهم واتبعوا ما حسن في ناظرهم، وأطاعوا سادتهم وكبارهم اتباعاً للملوك وطلبًا للدنيا؛ ضلوا السبيل إلى آخر هذه الدرجات. ومما أثاروا من المشكلات سؤالهم مثلاً: ما معنى رمي الجمار والعدو بين الصفا والمروءة، ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة، وما بال الجنب يغتسل من ماء قليل ولا يغتسل من البول الكثير، وما معنى الصراط والكتبة الحافظين، وما لنا لا نراهم، وما عذاب جهنم، وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب، وما إبليس والشياطين، وما يأجوج ومأجوج، وما شجرة الزقوم، وما دابة الأرض، وما الخنس الكُنس، وما معنى فواتح السور مثل ﴿الْم﴾، ﴿الْمَص﴾ إلخ؟ فإذا اطمأن الداعي إلى المدعو قال له: لا تجعل فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله، وإن من هداه الله من اعتقاد بالأئمة واستقى من علمهم، ثم ينقله نقله أخرى بقوله: «إن الله رب الأئمة واحداً بعد واحد، فأولهم علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين الملقب بزین العابدین ثم محمد بن علي ثم جعفر الصادق». ثم ينقله نقله أخرى من ترتيب الأنبياء وترتيب الأئمة ورثة الأنبياء، ثم نقلة إلى تقرير أنه لا بد لكل إمام من جماعة ينصرونه متفرقين في جميع الأرض عددهم اثنا عشر رجلاً، ثم يتدرج بعد ذلك في التعليم إلى الدرجة التاسعة، وهي الأخيرة بأن يأخذ على الأنبياء العهد بأداء الأمانة على ألا يظهروا شيئاً، وأن يمنع الأئمة مما يمنع منع نفسه، وإن خالف شيئاً من ذلك فهو بريء من الله. ويظهر أن هذه هي التعاليم الدينية، أما التعاليم السياسية من العمل على قلب الدولة الزمنية، وإقامة الثورات ووسائلها، فقاصرة على خاصة الخاصة من الرؤساء، وبذلك نظموا أنفسهم تنظيماً سريدياً دقيقاً أشبه ما يكون بتنظيم الجمعيات السرية الخطيرة اليوم.

على كل حال كان إخوان الصفاء جمعية سرية تعمل لهدم الدولة العباسية في الخفاء، ولهم ميول شيعية تظهر في ثنايا الكتاب، ولهم في ذك أصول ومعتقدات دينية، واشترطوا شرطًا كثيرة دقيقة للانضمام إلى العضوية، وقد رتبت بشكل موسعة، وعدد رسائلها اثنان وخمسون رسالة تعالج أبحاثًا في الرياضيات والفالك والجغرافيا والموسيقى وعلم الأخلاق والفلسفة، وأخر رسالة فيها تعتبر خلاصة هذه الرسائل، وقد كتبت بأسلوب راق مما يدل على رقي اللغة في ذلك العصر، وقد طوعوها للتعبير عن الفكر العربي، وقد تأثر بها بعض التأثير الغزالي في كتابه الإحياء، وذكر أن المعربي كان يحضر حلقات هؤلاء العلماء لما حضر بغداد في أيام الجمعة.

وقد ذكر أبو حيان التوحيدي أسماء وأضعها منهم: أبو سليمان البستي والمقدسي وأبو الحسن علي الزنجاني وزيد بن رفاعة والقوفي، وكان التوحيدي هو المصدر الوحيد الذي ذكر أسماءهم في كتابه «الإماع والمؤانسة»؛ ولذلك ظن بعضهم أنه عضو سري معهم وقد تنكر تقية.

وكان لرسائل إخوان الصفاء تأثيرات مختلفة في القوة والضعف في علماء الشرق والغرب على مر الزمان، وكل فلاسفة الإسلام الذين جاءوا بعدهم قد تأثروا بها وبنوا عليها. وربما عد بعضهم أبو حيان التوحيدي والراوندي والمعربي من أكبر أتباعهم المتأثرين بعلمهم الناشرين لنظرياتهم، حكى ذلك السبكي في كتابه «طبقات الشافعية». والدليل على أنها تشرح تعاليم الشيعة وعلى الأخص القرمطية أقوال كثيرة مبثوثة في ثناياها، منها ما جاء في فصول رسائل إخوان الصفاء مثل: الفصل الذي عنوانه فصل في أن كل من أحب الأئباء والمرسلين والأئمة الهاشدين والخلفاء الراشدين، الذين هم قوام الأئمة منهم توابيت الحكمة ومعهم تابوت السكينة الذي تحمله الملائكة المولكون بحفظه حتى يوم مستحقه، يتوارثه الخلف عن السلف فمن عرفهم واتبع سبيلهم فقد أخلص العبادة، ونجا من الأبالسة ... إلخ. ويقولون في فصل آخر: فصل في معرفة الولاية الروحانية التي يكون بها الوصول إلى دار البقاء، وفصل آخر في معرفة الآباء والأمهات في الولادة الروحانية، وفي كل هذه الفصول وأمثالها تنبت تعاليم الدعوة الشيعية وتعاليم الأئمة.

ويرمزون أحياناً رمزاً فيقولون مثلاً: هذا فصل لم ن Finch القول به، ولا أطلقنا الكلام فيه والدلالة عليه بالتصريح الشافي لكن بالتلويح والرمز، وهو فصل عميق في الرمز غامض في الدلالة.

وربما كان أقوى من نزع نزعة لاهوتية من الفاطميين الحاكم بأمر الله، فقد بدأ حياته مصلحاً متواضعاً يشرع للناس تشريعات معقولة، فمثلاً: منع النساء من الخروج لما رأى من الفساد، ونظم مالية البلاد والضرائب تنظيماً دقيقاً بمساعدة من في بلاده من اليهود والنصارى، واستقدم من البصرة الحسن بن الهيثم الذى نقض فى كتابه «المناظر» نظرية إقليدس القائلة: بأن الإبصار يكون بخروج شيء من البصر إلى المبصر، وقد تعهد ابن الهيثم للحاكم أن يعدل فيضان النيل، ولكنه لما أخرج نظريته إلى العمل تبين عدم إمكان تطبيقها، فاختفى فراراً من الحاكم، ورأى الناس يكترون من شرب الخمر، فحرم زرع العنبر وحرم الموائد والموسيقى، بل حرم الشطرنج ومجرد المشي على النيل لما رأى إفراط الناس في الملازات، وحرم على الناس من يصنع الأحذية للنساء حتى لا يخرجن، وأحياناً الأنظمة القديمة التي توجب على أهل الذمة لا يتزوجوا بزوج المسلمين. ولكن بعد ذلك غلا في لاهوتيته، فزعم أن الله تجسد فيه وأنه هو الإله وأنه في ذلك بأعاجيب، وكان يخرج إلى الصحراء يرصد الكواكب ويسبح في خيالاته الlahوتية، ولكنه لما اختفى في سنة ١٠٢١م، وربما مات مقتولاً ادعى أتباعه أنه لم يمت ولا قتل، وإنما يعيش مختفيًا عن الناس.

وعلى كل حال فإن الدولة الفاطمية خلفت لنا كثيراً من مظاهر الحضارة العظيمة، يدل عليها الأزهر الذي لا يزال يدوي علمه إلى اليوم، وفن العمارة، بل صنع التماضيل وإن حرمها الإسلام، والزخارف الكثيرة. وكانت الحقبة الفاطمية التي مرت بها مصر ذات ميل شيعية.

ومع دعوتهم إلى الزهد والورع، فقد ذكروا أن الخليفة المستنصر الفاطمي كان في قصره ثلاثون ألف نفس منهم اثنا عشر ألف خادم وألف فارس وحارس، وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو أنه رأى الخليفة على بغلة، وهو فتى وسيم الطلة حليق الوجه، وقد وقف بجانبه حاجب يحمل مظلة مرصعة بالحجارة الكريمة، وذكر أن الخليفة كان يملك في العاصمة عشرين ألف بيت أكثراً منها مبني باللبن في كل بيت خمسة طوابق أو ستة، وفي أسفلها حوانين يؤجر كل حانوت منها بما بين الدينارين والعشرة، وكان من عادته أن يركب على النجف مع النساء والحشم إلى موضع نزهة أنشاء، وربما خرج كما يخرج أغنياء الحجاج في يوم حجهم، وربما خرج ومعه الخمر في الروايا عوضاً عن الماء يسقيه الناس كما يفعل بالماء في طريق مكة، وذكر المريزى في خططه كشفاً بأسماء كنوز المستنصر تستدعي العجب، وهكذا يفعل الأئمة المعصومون الزاهدون المترعون الذين خلقت الناس لأجلهم، ولا يهتدى هاد إلا بهداهم !!

وكان من نفحات الفاطميين سيف الدولة الحمداني، فقد كان أيضاً شيعياً، وقد اشتهر بنصرته للعلم والأدب وكان في بلاطه الفارابي الفيلسوف الكبير الذي اشتهر بالرياضيات والطب ولكن تأليفه فيما تدل على أنه وصل فيهما إلى درجة متوسطة، وإنما كان ممتازاً في علمي التنجيم والموسيقى، وقد ألف في الموسيقى هذه كتابين من كتبه، ثم كتب فيها أيضاً ثلاثة كتب أخرى أهمها كتاب الموسيقى الكبير، وقد ذكر عنه أنه حضر مرة مجلس سيف الدولة، فأخرج عياداً وقع عليها فضحك كل من كان في المجلس ثم وقع عليها لحناً آخر، فبكى كل منهم ثم غير ترتيبها ووقع عليها لحناً ثالثاً، فناموا كلهم حتى الباب، ولا يزال بعض المولوية ينشدون بعض الألحان، المنسوبة إليه ويرى ابن خلakan أنه أكبر فلاسفة المسلمين، ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه. والرئيس ابن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع وبهديه سار وصنف.

وكان خازن كتب سيف الدولة الخالدين وشاعره المتنبي، ويظهر أن المتنبي أيضاً كان شيعياً، بل كان قرمطياً كما سيأتي، وكان نفوذ العلويين وتعاليمهم واسعاً كبيراً ومن أثر هذا النفوذ ما كان من المناقشة والجدل بين داعي الدعاة الفاطمي وأبي العلاء المعري، مما يطول شرحه وقد سمي الغزالي مذهبهم «التعلمي»، وذكرهم عندما اضطر إلى معرفة الحق، هل هو عند الفقهاء أو الفلاسفة أو التعليميين، ويقصد بالتعليميين هؤلاء الشيعة ثم لم يعجبه شيء من ذلك، وأخيراً تصوّف ورد على الشيعة، ومعنى التعليمية الذين يعتمدون اعتماداً مطلقاً على سلطة الإمام، وأنه مصدر التعليم والإرشاد وهو المهدى.

على كل حال تأسست هذه الدولة اعتماداً على فكرة المهدية، وكانت بلادهم أقوى مركز للتشيع، وقد كان تشيعهم هذا أمنٌ رباطٌ بينهم وبين الفرس أيدوهم بحكم تشيعهم أيضاً؛ وأيدوهم لأنهم ينتسبون إلى فاطمة وإلى علي. فأماماً عطفهم على علي؛ فلأنه فيما يقول المؤرخون زوج ابنة الحسين من ابنة يزدجرد ملك الفرس، وبين أولاده وبينهم نسب مشيج فنصفهم فارسي. وأما رضاهم عن أولاد فاطمة؛ فلأنهم تعودوا من زمن الأكاسرة أن يؤمنوا بنظرية التفويض الإلهي، وأن الخلفاء فيهم قبس من الله ينتقل من أبي إلى ابن، وهذا عكس الفكرة العربية التي تؤمن بالشوري وحكم أهل الحل والعقد، فيم يتولى الخلافة حسب المصالح؛ لأنها فكرة تتفق وديمقراطية العرب.

ولم تقف فكرة المهدى عند هذا الحد، بل لعبت بعد ذلك أدواراً كثيرة فإن نحن قلنا: أن كل الحضارة الفاطمية والعلم الفاطمي والقاهرة الفاطمية نتاج غير مباشر لفكرة

المهدي لم نبعد، وقد كان لنجاح الفاطميين تحقيق مادي لفكرة المهدي المعنوية أطمع غيرهم فيها، وكان أكثر الناس طمعاً هم الشيعة.

وقد انتشرت على مر الزمان الأحاديث التي تؤيد فكرة المهدي، والتي تفيد أنه يملك الدنيا بأجمعها شرقها وغربها كما ملكها سليمان — عليه السلام — ذو القرنين، وأنه ينزل عيسى — عليه السلام — في مدة المهدي، ويقتدي عيسى به في صلاة واحدة، وهي صلاة الصبح في بيت المقدس.

وقد أنشأ الشيعيون القصائد في مدح هذا المهدي، وسموه صاحب الزمان وكان من مدحه بهاء الدين العามلي، فقال فيه قصيدة مطلعها:

سرى البرق من نجد فجدد تذكاري      عهوداً بحزوى والعذيب وذى قار

ويقول فيها:

تمسك لا يخشى عظام أوزار  
وألقى إليه الدهر مقود خوار  
بأجذارها فاهاه إليه بأجذار  
كنقرة كف أو كغمسة منقار  
ولم يعشه عنها سواطع أنوار  
شوائب أنظار وأنناس أفكار  
لما لاح في الكونين من نورها الساري

هو العروة الوثقى الذي من بذيله  
إمام هدى لاذ الزمان بظلله  
ومقتدر ولو كلف الصم نطقها  
علوم الورى في جنب أبحر علمه  
فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه  
رأى حكمة قدسية لا يشوبها  
 بإشراقها كل العوالم أشرقت

... إلخ

وقد شرح القصيدة في آخر كتابه الكشكوك. وقد أحاطوا الفكرة بفكرة أخرى وهي فكرة قدرة المهدي على الإخبار والتنبؤ بالأحداث، وهذا باب عظيم من أبواب الشيعة، فهم يزعمون أن الإمام علياً ترك كتاباً صغيراً فيه ما كان وما يكون، وأن الأئمة من بعده اعتمدوا عليه وسموه «الجفر» والجفر «ما بلغ من الإبل أربعة أشهر، الذكر جفر والأنثى جفرة، وهو الذي حرفاها إلى الشفرة ومعناه الجلد الصغير»، وكانت العادة في أيامهم أن يكتبوا على الجلد، فسموا الكتاب جفراً وأحياناً يسمونه «جفر المسك» والممسك هو الجلد. وللشيعة في ذلك أخبار طوال فقد أدعوا أن فيه أسماء من يلي الأمور، وما ينالها من أحداث وأحياناً يذكرون ملحمة من الملاحم فيها أخبار الدنيا، وأحياناً أخبار دولة من

الدول يذكرون فيه ما يحدث في الماضي، وهو صحيح عادة وما سيحدث في المستقبل، وهو غيب مجهول، وسيأتي بعض أمثلة على استخدامهم هذا الجفر لإيهام الناس بغلبتهم حتى ينضموا إليهم.

فلما نجح الفاطميون في تأسيس دولتهم شجع هذا النجاح غيرهم على أن يقلدوهم، كلما أرادوا ثورة وأحسوا مظلمة، وكان انتشار المهدية في بلاد المغرب أكثر منها في بلاد الشرق لأسباب: منها أن المهرة المكررة أشاعوا حدثاً يومئذ إلى المهدى المنتظر مراكشي، ومنها أن المغاربة معروفون من قديم من أيام الكاهنة بالليل إلى الغيبات والتآثر بها.

ومن فضل الشيعة أنهم كانوا في بعض مواقفهم، وفي اعتقادهم بالأئمة المهديين يؤيدون الدين، ويريدون على الذين يعتقدون بسلطان العقل وحده، ومن الأمثلة على ذلك ما كان من المناظرات بين أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي، فأبوا حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ كان من كبار دعاة الإسماعيلية، و Ashton بدعوه إلى المذهب الفاطمي، ولعب دوراً عظيماً في الشؤون السياسية، وفي أذربيجان وفي الدليم حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة، فقد رد على أبي بكر الرازي وكان ملحداً يؤمن بسلطان العقل وحده وينكر النبوة، فالظاهر أنه كان هناك دعوة إلحادية تنكر النبوة، ومن أتباعها الرازي هذا صاحب كتاب الطب الروحاني وغيره من رسائل، وربما كان من معتنقي هذا المذهب أيضاً ابن الرواندي وغيره، وقامت طائفة تألف كثيراً في دلائل النبوة ردًّا عليه.

فكان الشيعة من الذين يؤيدون نظرية الدين، وقد يبالغون فيها بدعواهم الأئمة وعصمتهم، وربما كان أيضاً جهر المعرى بسلطان العقل في كثير من شعر اللزوميات، تبعاً لأمثال محمد بن زكريا الرازي دعاه إلى ذلك مغالاة الشيعة في دعوة الأئمة، فكان أمماه مناظرات أبي حاتم الرازي مع أبي بكر الرازي، وهذه المناظرات منشورة في الرسائل الفلسفية التي جمعها الأستاذ كراوس، ومما ذكره أبو حاتم الرازي في أول المناظرات قوله: «فما جرى بيدي وبيني الملحد أنه ناظرني في أمر النبوة، فقال: «من أين أوجبتم أن الله اختص قوماً بالنبوة دون قوم، وفضلهم على الناس وجعلهم أذلة لهم، وأوحج الناس إليهم، ومن أين أجزتم في حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك، وبيؤك بينهم العداوات ويكبر المحاربات ويهلك بذلك الناس، فرد عليه بأن الحكيم فعل ذلك رحمة بالناس، فالناس مع اختلاف عقولهم لا يمكن أن يستغفوا عن يرشدهم، ويهديهم من الأنبياء والأئمة والعلماء إلخ ...». فنرى من هذا أنه كان هناك حركة عنيفة بين

الملحدين الذين ينكرون النبوة، والمؤمنين الذين يعتقدون بها، ومن فضل الشيعة أنهم كانوا مؤمنين يدافعون عن الإسلام في الخارج ضد الصليبيين الذين يهجمون على بلادهم، وفي الداخل يصد من أنكروا الدين وجحدوا النبوة.



## الموحدون

وكان من أكبر الدول التي نجحت باسم المهدي أيضاً في المغرب دول الموحدين، وزعيمهم محمد بن تومرت وهو شيعي أيضاً من نسل علي بن أبي طالب، وقد رحل إلى الشرق، وتلقى علومه بالعراق، ولقي هناك الغزالى والكيا الهراسى والطرطوشى وغيرهم، وأخذ عزهم الحديث وأصول الفقه والدين. والحق أنه كان ورعاً ناساً متمسساً بالدين شديد الغيرة عليه منكراً للخارجين على الدين في شدة وحماسة؛ لذلك كان في كل بلدة يحل بها تؤخذ عليه هذه الشدة، وي تعرض للأذى ويتحمله في صبر. كان ذلك في مكة وفي مصر حتى طردوه منها، فخرج إلى المغرب ولم يدع هذه الشدة حتى وهو في السفينة، فلازم أهلها بإقامة الصلاة في أوقاتها وقراءة أحزاب من القرآن، ثم نزل بلدة «المهدية» حيث يقيم حزبه الشيعي، ونزل في مسجد مغلق على الطريق، فكان ينظر من النافذة فإذا رأى منكراً بين المارة نهى عنه. وادعى أن عنده نسخة من كتاب «الجفر» وأن رجلاً سيظهر في بلد حروفه «ت. ي. ن. م. ل» (تنيمل) وأن أكبر أصحابه رجل اسمه «ع. ب. د. ا. ل. م. و. م. ن» (عبد المؤمن) وأن أوانه قد أزف وكان من مكره أنه لقي رجلاً قديراً اسمه عبد الله الونشريشي، وكان عالماً فصيحاً باللغة العربية والبربرية، فصحبه وأوزع إليه ابن تومرت أن يتغابى ويتجاهل، حتى إذا جاء الوقت أوزع إليه بالفضحة والعلم، وادعى شيخه أن هذه إحدى معجزاته ... فكان ذلك ... وصحبه ... وذهب إلى أقصى المغرب، وتحدث في تغيير الدولة مع خاصته، فنصح الملك وزيره بأن يحتاط للأمر قبل استفحاله، وأن لا يستكثر اليوم ما ينفق؛ لأنه إن أبطأ لم تقاومه الأموال كلها، وأنكر ابن تومرت على الملك أن الخمرة تباع جهاراً، وتنشى الخنازير بين المسلمين، وتوخذ أموال اليتامي فنصحه أصحابه بالالتجاء إلى جبل في بلدة قريبة، فسألهم عن اسمها فقالوا: الاسم الذي رأه في الجفر، وما زال يبيث في أهل الجبل الخروج والتسلح حتى آمنوا به،

واستطاع أن يجهز جيشاً عدده عشرة آلاف رجل مزودين بالسلاح، وقد كسر أصحابه أول الأمر كسرة مشينة، فطيب خاطرهم، وقال لهم: إن الحرب سجال ورسول الله كان ينتصر وينهزم، وأن العاقبة للمتقين ثم أعادوا الكرة فانتصروا.

وكان من الأعبيه أن استنطق رجلاً من أهل الجبل فسألة: عرفنا أسعداء نحن أم أشقياء؟ فقال له: أما أنت فإنك المهدي القائم بأمر الله ومن تبعك سعد، ومن خالفك هلك، ثم عرض أصحابه على هذا الرجل، وطلب إليه أن يميز أهل الجنة من أهل النار، وكان قد اتفق معه على أن يجعل أعداءه من أهل النار فيتخلص منهم ...

على كل حال مات هذا المهدي قبل أن ينتصر، وخلفه عبد المؤمن وكان أحسن حظاً من شيخه. فتح كثيراً من بلاد المغرب والأندلس، وكان من نتيجة ذلك دولة الموحدين المشهورين في تاريخ الأندلس، فكانت هذه مملكة عظمى من بركات المهدي المنتظر، تشمل المغرب كله إلى حدود مصر والأندلس، وكانت أيضاً دولة شيعية عظيمة تستند على فكرة المهدي. ولكن الحق يقال: إن التشيع دائمًا ينصر الفلسفة أكثر مما ينصرها السنيون، ولعل ذلك لفكرة أن التشيع مبني على تأويل الظاهر إلى معانٍ باطنية. وعلى إدراك معانٍ عميقة بنيت عليها الدعوة الشيعية. فالفلسفة أنساب لها. فالحضارنة العظيمة والفلسفة العميقة التي أينعت في العهد الفاطمي والشيعي، ومنها رسائل إخوان الصفاء ونحوها في المشرق كانت نتاج التشيع.

وكذلك في عهد الموحدين أينع الفيلسوفان العظيمان ابن طفيل وابن رشد. فقد حلت الفلسفة في الأندلس. وكانت من قبل ذلك محمرة، أما ابن طفيل فكان صبياً في غرناطة. ثم عين سكرتيراً لعامل غرناطة قبل الموحدين، وهو الذي أخرج القصة البدية المشهورة المسماة «حي بن يقطان»، وخلاصتها أن حياً هذا ولد يتماً في جزيرة خالية من الناس ولكنه منح عقلاً فاحضاً، فاتصل بالطبيعة، وأخذ يفهمها شيئاً فشيئاً من غير تعلم. وقد استطاع بعقله وحده أن يفهم من الطبيعة أسرارها، وأنه لا يمكن أن تكون من غير صانع، فلا بد أن يكون هناك إله ذو صفات خاصة ينظمها ويدبرها، ثم التقى في إحدى الجزر برجل مؤمن تعلم على أحد الصالحين علم الأنبياء، فرأى حي أن تعاليمه التي اهتدى إليها بفكرته وطبيعته، تتفق وتعاليم هذا الرجل الذي تعلم عن طريق الدين. وخلاصة ذلك أن نتيجة كل من الشرع والعقل واحدة. وأن الشرع لا ينافي العقل، ويتدخل القصة نظرات كثيرة دقيقة صائبة. وقد نقل الكتاب على العربية بعد مائتي عام من ظهوره. ثم نقل إلى أكثر اللغات الغربية، وخلفه بعد ذلك في منصبه كطبيب ابن رشد

الفيلسوف الشهير. ولكن قوله: بقدم العالم كرأي أرسطو أقام عليه الفقهاء فحماء أمير المؤمنين بادئ الأمر، ولكنه اضطر أن يتخل عنده أخيراً لإرضاء للرأي العام، فنفاه بعد أن امتحنه مهنة مؤلة، وأحرق مؤلفاته ما عدا كتبه الطبية والرياضية، ولكن ابن رشيد سرعان ما توفي.

على كل حال كانت دولة الفاطميين ودولة الموحدين دولتين شيعيتين تدينان بفكرة المهدى، وتعاقبت بعد ذلك على مدى الأزمان فكرة المهدى هذا تظهر من حين إلى حين.

ومن غريب الأمر أن النصور بن أبي عامر الحاجب لما تغلب على الأمويين، وحل محلهم حكم البلاد حكمًا طيباً، وقاتل أعداء الإسلام شديداً ...

ولما مات خلفه ابنه أحدهما اسمه عبد الرحمن، فتلقى بالمهدى، ولكن خرج عليه محمد بن هشام الأموي وتلقب بالمهدى أيضاً، فكان مهدي يحارب مهدياً، وقد أسرف محمد بن هشام هذا في قتل الخصوم حتى اتخد من رءوسهم أصصاً يغرس فيها النباتات على اختلافها، وكان يعتقد النبيذ في قصره، ويشربه حتى سموه نباداً.

ولما ذهب الموحدون والمرابطون وانتصر الأسبانيون على المسلمين، ولم يبق للمسلمين إلا بقعة صغيرة في الأندلس كان ملوك بنى الأحمر يتطلعون إلى مهدي منتظر يقويمهم على الأسبان، ويطردهم منها لما عجزوا أنفسهم عن طردتهم.

وبتولي الأزمان كثرت الأحاديث عن المهدية والمهدى. ومن قديم رأى الناس نجاح هذه الفكرة. فالأمويون اخترعوا مهدياً اسمه السفياني، وقال صاحب الأغاني: «إن خالد بن يزيد بن معاوية زاد في أخبار السفياني وكبره»، وكان فيه معنى المهدى المنتظر، وبقيت هذه العقيدة في السفياني على الدولة العباسية. والعباسيون أحبوا فكرة المهدى أيضاً، ولكن جعلوها في البيت العباسى لا العلوى.

فتلقى الخليفة المهدى بهذا اللقب لهذا الغرض، أما الشيعة فقد اعتنقوا أيضاً هذه الفكرة وقصروها على البيت العلوى.

وكانت هذه العقيدة أساساً من أسس الشيعة لا يتم التشيع إلا بها. أما عند أهل السنة فقد آمنوا بها أيضاً، ولكن لا بهذه القوة التي عند الشيعة. ووضع كل الأحاديث في تأييد المهدى المنتظر. وما يشهد بالفخار للبخاري ومسلم أنهم لم تتسرب إليهم هذه الأحاديث. وإن تسربت إلى غيرهما من الكتب التي لم تبلغ صحتهما. وذلك مثل ما وضع تملقاً للدولة العباسية أن الهدى يخرج هو وأصحابه من خراسان حاملين الرایات السود، وهذا ينطبق على العباسيين دون غيرهم، وفي كل زمان يظهر مهدي

تظهر أحاديث جديدة تنطبق على هؤلاء التأثرين. وقد أحصى ابن حجر الأحاديث المروية في المهدى، فوجدها نحو الخمسين وقال: إنها لم تثبت صحتها عنده. وكما لعبت فكرة المهدى والتشيع في الغرب لعبت كذلك مثلها أو أكثر منها في الشرق. فكل حين نرى ثورة عظيمة شبّت ودامت سنتين، ومن ذلك ثورة الزنج في العراق. نشأت من ظلم الحكام والطموح إلى العدل. وقد ظهرت هذه الثورة على يد العبيد في البصرة، وأصلحهم من زنوج أفريقيا. كانوا يعملون لتعهد بالسباخ قرب البصرة وكان هذا السباح أكواًماً عظيماً. فظهر رجل فارسي اسمه علي وقد نجح في بيان الظلم الواقع على هؤلاء العمال، وأبان لهم أن مصيبيهم ناشئة من الولاة العباسيين، فوعدهم بتحسين حالهم وضمان حريتهم، وترف عيشهم. فثاروا واستولوا على البصرة وضواحيها وبني بلدة جديدة باللين وسموها المختارة ... ولعله اختار هذا الاسم إيماءً إلى المختار الثقفي، الذي اخترع فكرة المهدى الجديدة، وانضم البدو الذين كانوا مجاوريين للزنوج إليهم، وقد نهبوا البصرة وهجموا على المسلمين أثناء صلاة الجمعة، وقتلوا من في المسجد ومن أهل البصرة نحو ثلاثة ألاف، وانتدب الخليفة العباسي أخاه لتهديّة هذه الثورة التي دامت سنتين، وجعلت البلاد في خطر.

## القرامطة

ولم تكن ثورة القرامطة بأهل من هذه شأنًا. وهي أيضًا فتنة شيعية مهدوية. فقد رأينا على حين غفلة أن قد شاع في الناس أن العالم الإسلامي غارق في الجهل والظلم، وأن لا سبيل إلى الخلاص من هذه المظالم إلا بمهدى يملأ الأرض عدلاً ورحمةً. فظهرت فرقة القرامطة في العراق وعلى رأسها رجل يسمى حمدان قرمط، ويقال: إن معنى قرمط باللسان الآرامي «المعلم السري» والعرب يقولون: إنها مشتقة من القرمط بمعنى القصير. وإليه تنسب الفرقة وقد ظهرت في العراق أول الأمر. وبني حمدان هذا داراً تسمى دار الهجرة تمثلاً بالنبي ﷺ. وكان يدعوا إلى الاشتراكية أعني المساواة في الأموال، ويقيم أصحابه بعضهم لبعض موائد تسمى «البلغة»؛ ولذلك يطلق عليهم الفرنج شيعي العرب، ووضعوا كتاباً في معتقدهم الديني لتعليم المريد. وكان للقرامطة تعاليم دينية مؤسسة على الاتصال بالله والوحى الخفي إلى زعمائهم، وكان من أفحشهم شخصيتان كبيرتان كان لهما أثر كبير في الإسلام. «الأول الحسين بن منصور الحلاج»، وهو فارسي الأصل وقد نشأ بواسطه وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره، وقال: بوحدة الوجود ومن الشعر المنسوب إليه على اصطلاح الصوفية وإشاراتهم.

أرسلت تسأل عنِّي كيْف كنْت وما لاقْيْت بعْدك من همٌّ وَمَنْ حَزَنْ؟  
لا كنْت إِنْ كنْت أَدْرِي كيْف كنْت كنْت إِنْ كنْت أَدْرِي كيْف كنْت

وهو من أصل مجوسي، وقد جرى منه كلام نحو ذلك أنكره عليه الفقهاء، فقال الحلاج: «ظهري حمى ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتقؤلوا عليّ»، وقد حرر الفقهاء محضراً وقعوا عليه بحل قته، ورفع إلى الخليفة المقتدر بالله. فوقع عليه، وإذا القضاة

كانوا قد أَفْتَوْا بقتله، فليسلم إلى صاحب الشرطة، وليتقدم إليه بضربه ألف سوط، فإن مات من الضرب وإلا ضرب ألف سوط أخرى ثم يضرب عنقه، وقال لصاحب الشرطة: إن قال لك: أنا أجري الفرات ودجلة ذهباً وفضةً، فلا تقبل ذلك منه ولا ترفع العقوبة عنه، فنفذوا فيه ذلك ونصبوا رأسه على الجسر ببغداد، وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوماً، وقد اختلف فيه الناس فمنهم من يبالغ في تعظيمه، ومنهم من يكفره، وقد دافع عنه الإمام الغزالى في كتابه الأنوار، وقال: إنه قال ما قال من فرط محبته وشدة وجده، وذكر بعضهم أنه هو والجناى وابن المفعع تواصوا على قلب الدولة، وال تعرض لفساد الملكة واستعطاف القلوب واستعمالها إليهم، وارتاد كل واحد منهم قطرًا، فأما الجنابي وهو داع من أكبر دعاة القرامطة، فذهب إلى الأحساء وأما ابن المفعع فسار إلى تخوم الأتراك، وأما الحلاج فذهب إلى بغداد، وقد ندق ابن خلكان هذا الخبر؛ لأن ابن المفعع تارىخهما، ورجح أن يكون الرجل الثالث هو أبو جعفر محمد بن علي الشلجمانى — مع فرق الكتابة بين اللفظين — فقد أحدث مذهبًا غالياً في التشيع والتناسخ، وحلول الله في الجسد على نحو ما فعل الحلاج، وقد ذهب إلى بغداد وادعى فيها الربوبية، فقبض عليه الوزير ابن مقلة وادعى عليه أنه يقول: إنه «الباب إلى الإمام المنتظر، وعرض أمره على الفقهاء، فأفتووا بإباحة دمه فأحرق بالنار سنة ٣٢٢هـ، وشلمغان قرية بنواحي واسط، ويلاحظ هنا أنه استعمل كلمة الباب يقصد بذلك المدخل إلى المهدى، وهو اللفظ الذى استعمله البابية فيما بعد.

وعلى الجملة فقد قتل الحلاج بحكم الفقهاء، والذى يلاحظ في هذا العصر، والذى قبله الخلاف الشديد بين الفقهاء والمتصوفة فالمتصوفة يرمون الفقهاء بأنهم ظاهريون يتبعون الأشكال، ويحافظون على الشعائر التي تقام بواسطة الجوارح من غير نظر إلى روحها؛ ولذلك يفصلون القول في كيفية الوضوء وكيفية الصلاة وما إلى ذلك، والفقهاء يرمون المتصوفة بأنهم توسعوا في أمور الدين، وأفطروا في المعانى والشطحات وما إلى ذلك، وجرب على ألسنتهم عبارات التناقض الدين، وربما كان أول من وفق بين الفقهاء والصوفية القشىري في رسالته ثم الغزالى؛ لأنه كان فقيهاً كبيراً ومتصوفاً كبيراً معًا، وبعد ذلك سموا الفقه شريعة التصوف حقيقة، ومدحوا من جمع بين الشريعة الحقيقة، ونقدوا من تمسك بالشريعة دون الحقيقة أو بالحقيقة دون الشريعة، وعلى الجملة فقد كان الحلاج أثراً من آثار القرامطة.

والاقتصاديون يعتبرون القرامطة حركة اقتصادية كبيرة ثارت على الظلم الذي ساد المجتمع في العصر العباسي، فجعل بعض الناس يعيشون عيشة بذخ وترف، وبعض

الناس يعيشون عيشة بؤس وفقر، وقد حكى أن قريباً لهارون الرشيد كان دخله اليومي مائة ألف درهم، فتعلق به رجل فقير، وقال: هل من العدل أن تغل مائة ألف درهم في اليوم، وأنا لا أستطيع أن أحصل على نصف درهم في اليوم، وقد حكى لنا الخطيب البغدادي ما خلفه بعض الأغنياء من ثورة، فكان مبلغًا يعجز عن الوصف كما يحكى غيره عن آخرين كانوا علماء فضلاء لا يجدون قوت يومهم، كالذى يحكى عن الخطيب التبريزى أنه كان يرحل من بلدة إلى أخرى ماشياً يحمل على ظهره خرجالاً فيه كتب، حتى لتناف بعض كتبه من العرق الذى يخرج منه، وكذلك الذى نقرءوه في كتاب الفلاحة والمفوكون من فقر مدقع مع علم واسع وأخلاق فاضلة.

وأيًّا ما كانت حركة القرامطة فقد كان مبعثها هذه الفروق بين الناس، ولكنها لم تكن اشتراكية كالتي وضعها كارل ماركس، لكنها كانت دعوة إلى الإصلاح المادى عن طريق روحانى من إيمان بالإمام وإيمان بالمهدى المنتظر؛ لأن الناس إذ ذاك كانوا لا يخلصون للثورة ولا يؤمنون بإصلاح إلا ما كان من قبل الدين، والذين يدعون إلى الهدوء كانوا يدعون أيضاً من طريق الدين، فالله قسم الأرزاق وكتب في الأزل على الغنى أنه غنى وعلى الفقير أنه فقير، فكما أن نتيجة هذه التعاليم تدعوا إلى الهدوء والطمأنينة، وحمد الله على الفقر كمحده على الغنى والقناعة بما قسم الله والرضى بالقليل مع الشكر، فكذلك الأخرى تدعوا إلى الثورة وإصلاح الحال، وهذه الثورات على الدولة العباسية لنظمها الفاسد، وإنما تتجه الغنى الكبير والفقير الكبير تدعوا كلها إلى تحقيق العدالة عن طريق المهدى المنتظر، ونجدها كلها تنتقد هذه الأحوال فنجدها في ثورة الزنج وثورة القرامطة، وثورة الحشاشين وما إلى ذلك.

ومن الغريب أننا لا نجد في التاريخ الإسلامي قيام مصلح دنيوي يرجع إلى العقل، فيطالب بإصلاح الفاسد والعدالة في توزيع الثروة؛ وذلك لأن الرأي العام في تلك العصور كان متأنراً بالدين أثراً كبيراً، فهو لا يخضع لدولة إلا إذا مزجت بالدين وهذا ما لاحظه ابن خلدون في العرب، إذ قال: «إنهم لا يخضعون ولا يقادون إلا لرسالة دينية أو نحوها، وكان كالعرب الأمم الأخرى التي خضعت لحكمهم وأمنت بتقاليدهم وسارت على منوالهم».

والشخصية الثانية: من أثر القرامطة أبو الطيب المتنبي، فقد كان متأثراً بأثارهم وولد في ظلهم وتحت سلطانهم، وكان في الرابعة عشرة من عمره تقريرياً يوم ثار القرامطة، وقد اصطبغ بصبغتهم وتعلم علمهم. فقد حدثونا أنه تعلم أول أمره في مكتب من مكاتب العلوين، ولا شك أنه تلقى في هذا المكتب تعاليم الشيعة أول ما تعلم، ومن هؤلاء الشيعة كانت القرامطة، ثم خرج إلى البادية، ونظن أنه اتصل بداع من دعاة العلوين، وأكمل عليه تعاليمه وهذا كله يفسر النزعة السفاحية التي عند المتنبي حتى من صغره. فهو يقول في مطلع شعره:

منشورة الضفرين يوم القتال  
على فتى معتقل صعدة

لا تحسن الوفرة حتى ترى  
يعلها من كل دافي السبال

ثم هو إذا شدا وقعت في قصائد هذه النزعة الروحية، التي كان يقول بها الشيعة، فمثلاً يقول:

من ذلك الملكوت أسمى من سما	يا أيها الملك المصفى جوهراً
فتکاد تعلم علم ما لم تعلما	نور تظاهر فيك لاهوته
من كل عضو منك أن يتكلما	وبيهم فيك إذا نطقت فصاحة
من كان يحلم بالإله فاحلما	أنا مبصر وأظن أنني نائم
صار اليقين من العيان توهما	كبر العيان على حتى إنه

فهي من نوع غير معروف عند الشعراء الآخرين.

وهذا يفسر أيضاً هلوسة المتنبي في دعوه النبوة، ومن أجل ذلك سُمي بالمتنبي، وطموحه طول عمره إلى أن ينال ولادة أو ملكاً، وغضبه على كافور إذ لم يبنه ولادة، ونظن أنه لو نالها لقرمطها وقلبها ولادة شيعية حسب تعاليمه، ونرى ديوانه مملوءاً بالقوة والدعوة إلى الثورة والاعتداد بالشجاعة، وهذا هو السبب في أنه فضل سيف الدولة ابن حمدان على كافور الإخشيدى؛ لأن الأول بطل في الحروب الداخلية مع الأعراب والخارجية مع الصليبيين، بل كان المتنبي نفسه يخرج مع سيف الدولة محاربًا، وأما كافور الإخشيدى فقد عرف السياسة والمكر والدهاء لا بالفتى في الحروب؛ ولذلك أيضاً كان أحب شخص إليه لما جاء مصر فاتكًا الرومي لشجاعته النادرة، حتى سموه مجنوناً،

وقد بکى عليه كثيراً ورثاه في ديوانه في ثلاث قصائد مما لم يفعل مع غيره، وقد أعلى شأنه بمقدار ما حط من شأن كافور، ويستطيع القارئ الدقيق لديوانه بعد هذه النظرة أن يرى فيه تشيناً كثيراً وقرمطة كثيرة مثل:

يا عاذل العاشقين دع فئة  
أضلها الله كيف ترشدها  
ليس يحق الملام في هم  
أقربها منك عنك أبعدها

إلى غير ذلك، كما يفسر أيضًا نقمته على العالم العربي وحكمه بغير عربي، ولعل ممنناه أن يكون عربيًّا شيعيًّا يطبق تعاليم القرامطة، وأنه يبكي الشام ويبكي مصر ويبكي سوء النظام الاجتماعي الشامل ويطمح إلى تغييره، إلى كثير من أمثال ذلك، فكل هذا الاضطراب والهيبة والبكاء والعويل والنقطة من المتibi على المعاصرين من غير الشيعية أثر قرمطي واضح، وساعده على ذلك خدمته الطويلة لسيف الدولة الشيعي أيضًا المتصل اتصالًا وثيقًا بالشيعيين ومذهبهم.



## الحشاشون

ومن هذه الفرق التي كانت مؤسسة على التشيع والاعتقاد بالمهدية فرقه الحشاشين، ويسمون أحياناً بالإسماعيلية، وأحياناً بالديلمية وزعيمهم الحسن بن الصباح المشهور، وسموا بالحشاشين؛ لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش، وقد شاع استعمال المكيفات لديهم ولدى الصوفية، كما استعملوا القهوة للتبه للعبادة كما يقولون وكان الحشيش يخدم أغراض هؤلاء الإسماعيلية؛ لأنه يخدر أعصابهم ويزيد أحلامهم للذينة فيكونون أطوع في تنفيذ الأوامر التي تصدر لهم، وقد حكى الرجال ماركو بولو – الذي رحل إلى بلادهم بعد مائتي سنة تقريباً – أنهم كانوا يستعملون الحشيش في القلعة، فإذا خدروا حملوا إلى بقعة في فناء القلعة، وكانت مملوقة بالخانيات الحسان ليتمتعوا باللذائذ فيها حتى يتمثلوا في ذلك الجنة ونعمتها، فإذا أمروا أمراًنفذوه، فإن استطاعوا الهرب فيها، إلا الجنة مأواهم.

وقد كان حصنهم الحصين قلعة «الموت» الجبلية، ومعناها ملجاً العقبان لحصانتها ووعورة مسلكها، هي قلعة على مسافة ستين فرسخاً إلى الشمال من قزوين، وقد يسمى أصحابها بالفداءين؛ لأنهم رتبوا أنفسهم على الفداء، وكانوا يعلمون الأطفال الاستهثار بالموت، ومن أغراضهم أن لا يبقوا على وجه الأرض أحداً من خصومهم، قال صاحب كتاب الفرق: «إن ضرر الإسماعيلية على الإسلام أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس، بل أعظم من ضرر الدهرية ومن ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان»، وكان من تعاليمهم على ما يروي خصومهم عدم التمسك بالشائع والإباحية كالذى يقول:

خذى الدف يا هذه واضربى      وغنى هزاريك ثم اطربى

وهذانبيبني بعرب  
وهذه شريعة هذا النبي  
وإن صوموا فلكي واشربوا  
ولا زورة القبر في يثرب ...  
من الأقربين أو الأجنبي  
وصرت محرمة للأب  
وأسقاها في الزمن المجدب؟

تولىنبيبني هاشم  
لكلنبيمضى شرعه  
إذا الناس صلوا فلا تنهمضي  
ولا تطلب السعي عند الصفا  
ولا تمنعني النفس من المعرسين  
فلمذا حللت لهذا القريب  
أليس الغراس لم ربه

وعلى الجملة فقد اشترطوا في داعيهم أن يكون عارفاً بالوجوه التي تدعى بها الأصناف، ثم يدعى كل صنف بما يناسبه، فمن رأى الداعي مائلاً إلى العبادة حمله على الزهد والعبادة، ومن رأى ذا مجون وخلاعة قال له: العبادة به ومحماقة على مثل ذلك. وزعيمهم الحسن بن الصباح هذا يروي بعض الرواية أنه كان صديقاً لعمر الخيام ونظام الملك، وقد أخذ تشيعه عن مصر حين رحل إليها، واعتنق المذهب الفاطمي وخصوصاً الفرع النزاري ثم رحل إلى فارس، وقد وضع لأتباعه خطة لاغتيال العظام البارزين من السنين حتى يخلو الجو للتshire، وقد مهد لذلك بالتشريع على الخلفاء والحكام السنين وكبار مظالمهم، وتحدث بقرب ظهور المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً، وقد استولى بقوة جيشه على بعض الأماكن بسوريا، وكان يعلم أيضاً تعاليم إباهية تدعو إلى رفع التكاليف عنمن تقدم في المذهب اجتناباً لقلوب العامة، وقد أرعب الملوك والعلماء في البلاد لكثرة ما كانوا يغتالون، وكان أول من اغتالوه الرجل العظيم «نظام الملك» الوزير السلاجوفي المشهور، الواقع أنهم لم يكونوا موفقين في قتلهم؛ لأنهم من أحسن الرجال عدلاً وعطفاً على العلماء وتشجيعاً للعلم، وهو الذي أنشأ المدرسة النظامية في نيسابور والمدرسة النظامية في بغداد، وهي التي درس فيها الحويوني والغزاوي والكيا الهراسي وأمثالهم، واعتنق المذهب الأشعري وساعد على نشره، وهذا الوزير وضع رسالة بالفارسية في نظام الملك تحتوي على آراء كثيرة صائبة مثل تحذيره للسلطان من تدخل أصدقائه غير المسؤولين في شئون الدولة، ومن تدخل بعض رجال البلاط للنظر في الدعاوى وإصدار الأحكام، واستغلال سلطتهم في ابتزاز أموال الرعية، وأخيراً حذر نظام الملك السلطان السلاجوفي من الحشاشين، ونصحه بقتالهم قبل أن يستفحلاً أمرهم، ولكنهم تمكنا من قتل نظام الملك قبل أن يقتلهم، فقد كان قد خرج إلى رحلة فاعتراضه شاب من هؤلاء الفدائيين

متزيياً بزي الصوفي، وتظاهر بأنه يردي إحساناً ومديه إليه، فمد نظام الملك إليه يده، فانتهز هذا الشاب هذه الفرصة وطعنه بخنجر مات منه.

وقد كان أمير هذه القلعة يسمى داعي الدعاة ومن تحته الدعاة، وكان إذا انتدب أحد أتباعه لعمل فدائي قال له: «قم إلى فلان فاقتله ومتى رجعت تحملك ملائكتي إلى جنة النعيم، وإذا مت من دون ذلك أرسل ملائكتي إليك يذهبون بك إلى جنة الخلد». وقد روّعت هذه الحادثة نفوس العظام وخوفتهم منه، وقد أراد هؤلاء الشاشون مرة أن يقتلوا صلاح الدين الأيوبي؛ لأنه كبير من كبراء السنّة؛ ولأنه قضى على الدولة الفاطمية في مصر، وذلك أن قائد حلب أغرى هؤلاء الشاشيين بقتل صلاح الدين حين حصرها لأول مرة، وكان هذا الزعيم يسمى رشيد الدين ويعرف بشيخ الجيل، ولكن صلاح الدين نجا من هذا الفدائي بأعجوبة.

وظلت هذه الفتنة تروع البلاد بقتل العظام، وتصل إلى ذلك بمؤامرات سرية دقيقة وتنظم شئونها في دقة وإحكام، حتى علا شأنها وكثر تحربيها، ولكن كان لهم موقف حميد، وهو محاربتهم الصليبيين وإيقاع الربع في نفوسهم، وأخيراً أوقع بهم هولاكو المغولي، فاستولى على قلعة الموت في سنة ١٢٥٦م، ثم جاء بيبرس فقضى عليهم القضاء الأخير سنة ١٢٧٢م، ومنذ ذلك الحين تفرق شملهم في سوريا وفارس وعمان وزنجبار والهند وكفى الله المؤمنين شرهم. ومن الأسف أن تعاليهم كانت سرية، وقد دمرت كل آثارهم فلم يبق لنا منها ما نستخرج منه تعاليهم الصحيحة، ولكنهم على كل حال يدينون بالمهدي وبالتشيع وينظمون أنفسهم تنظيماً شيعياً، ويستقون من نبع التعاليم الفاطمية، وقد أطلق الفرنج هذه الكلمة حشاشين "Assasins" على المغتالين أخذوا من اسم هذه الفتنة، ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، فإن هذه الثورات التي ذكرناها وأمثالها كشفت للمسيحيين عن ضعف المسلمين، فشجعت على الحروب الصليبية كما كشفت حملة مصر على العثمانيين، فأطمعت الأوروبيين فيهم.

نعم إن المؤرخين نسبوا الحروب الصليبية لجملة أسباب منها اضطهاد الحجاج المسيحيين للقدس، وسوء معاملتهم، ولكنني لا أنكر أن من أهم الأسباب في الحروب الصليبية التقارير السرية التي كان يكتبها القسّيس المتربيون بزي الحجاج، والتي تبين ضعف المسلمين وتحث الصليبيين على انتهاز الفرص والهجوم على المسلمين، وأخذوا البلاد منهم، ولو لا أن قيصر الله للإسلام محمود زنكي وصلاح الدين بيبرس وأمثالهم لضاعت البلاد الإسلامية كلها؛ بسبب هذا الضعف الذي سببته الثورات: ثورة الفاطميين والموحدين والزنج والقرامطة والشاشين.



## ثورة البساسيري

هذه هي الثورات الكبرى المهدوية، وهناك ثورات صغيرة أخذت في مدها كثورة البساسيري، وهو رجل تركي كان مقدم الأتراك ببغداد، وكان القائم بأمر الله الخليفة العباسي قدمه على جميع الأتراك، وقلده الأمور بأسرها، وخطب له على منابر العراق وخوزستان، وهادنه الملوك فراسله المستنصر بالله الفاطمي، وأسر إليه أن يدعو بالذهب الفاطمي في العراق وإذا هو فعل ذلك، وأزال الخليفة العباسي وعد بأن يكون والي الفاطميين على العراق، وأن يمنح جميع السلطان فقام البساسيري على القائم بأمر الله العباسي، وخطب للمستنصر بالله الفاطمي، وظل على هذه الحال حتى جاء طغرل بك السلاجقى وقابل البساسيري وقتله، وأعاد القائم إلى بغداد، وكان ذلك سنة ٤٥٠هـ. وعلى كل حال كان الشيعة يؤلفون حكومة بجانب الحكومة الرسمية من عهد علي، ويتقنون بالتقية وهو مبدأ معناه التظاهر بعكس ما في الضمير حتى يجد صاحبه الفرصة، فكان رجال هذه الحكومة العلوية من عهد علي يؤلفون حكومة داخل الحكومة على رأسها إمام يظهر إذا دعا الحال، ويختفي إذا دعا الحال، وإذا ظهر بشر بالمهدي وادعى أنه مبعوث ملء الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً، وكانت سلطة الخلفاء الرسميين وقوتهم موزعة بين إدارة شئون البلاد واتقاء العلويين، شأنهم شأن الأحزاب اليوم نصف قوتهم تقريباً موجهة إلى إرادة مrafق الحياة، والنصف الآخر موجة إلى ابقاء شر المعارضين، ولو وجهت كل قوتهم لمصلحة البلاد لتغير وجه التاريخ. وكل حادثة من الحوادث تكون شوكة في جنب الدولة تهد من كيانها، وتهز من عرশها سواء انتصر فيها الخليفة الرسميون أم انهزموا، وأخيراً وبعد طول الحوادث وكثرتها تنهض الدولة. هكذا كان شأن الدولة الأموية مع العلويين، وخصوصاً بعد مقتل الحسين فقد كان مقتله سبباً لاستجلاب العطف على العلويين. ولما كبر أبناء الحسين عولوا على أخذ بثار أبيهم،

وطلت المجازر تنتشر على يد الخلفاء الأمويين، وظل العلويون يعملون في الخفاء ضد الأمويين، ويدبرون المؤامرات ويدسون الدسائس حتى سقطت الدولة الأموية، فلما جاءت الدولة العباسية ابتدأت موقفها بسفك دماء العلويين والأمويين معًا، فكرههم العلويون واستعملوا معهم مبدأ التقية هذا، وبذلك ظل الحال كما كان في العهد الأموي، إمام يموت وإمام يقوم مقامه، وإمام يختفي وتبت الدعوة له ويداع بأنه سيخرج لينتقم من الظالمين، وكلما انطفأت ثورة قامت مقامها ثورة، وساعد على نجاحهم أن العباسيين كانوا ظلمة لا يتحررون عدلاً، ولا يقيمون للشعب وزناً، فكان الشعب نازاً خامدة تنتظر من يشعلها، حتى من اتصف بالعدالة منهم فإنما عدالته نسبية، ولم يكن أحد منهم يعطف على العلويين، والشعراء يقرون ببابهم يمدحونهم ويدمرون العلويين، والأئمة العلوية تزعم كل حين أنهم إذا ولوا أمور الرعية ساسوها بالعدل المطلق. وفرق كبير بين الدعوى والواقع، وقد شكا المأمون من هذا، فقد رأى أن الأئمة يختفون عن الأعين، ويرتكبون ما يرتكبون من الإثم ولا من يراهم ويعرف قيمتهم، فقال: إن من الخير للناس أن تظهر هذه الأئمة حتى يعرفوا زلاتهم، ولا يقدسوا هدا التقديس، علمًا بأنهم إذا ظهروا على مسرح الحياة، وبيان للناس كيف يحكمون وكيف يرتكبون ما حرم الله سقطوا من أعينهم، ولكن ما داموا ماضطهدين مختلفين مكثفين بالدعوه بقي العطف عليهم في الناس؛ ولذلك اعترض أن يولي بعده علياً الرضا، كالذى حكى أن ملگاً كان يطلب منه وزيره كل يوم مطالب الشعب، والملك يمانع فيها، فلما مات الملك وخلفه ابنه، وكان أعلم من أبيه ذهب إليه الوزير يطلب هذه المطالب، فقال الملك: «قد أجبتك إلى كل ما تطلب، فصرخ الوزير من هذه الإجابة: لأنه إنما علم أنه يعيش على الوهم والخداع، فإذا حققت مطالب الشعب كلها ذهب وهمه وخداعه وعلمت حقيقته.

هذا كله في العصور القديمة ...

## البابية

أما في العصور الحديثة فليست فكرة المهدى فيها أقل شأنًا مما كان في العهود القديمة، فمن حين إلى آخر كانت تظهر حركات ثورية يدعى القائم بأمرها أنه المهدى المنتظر، وسنذكر أهمها من غير استقصاء.

في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت فرقه جديدة متطرفة تدين بالتشيع وبالإسماعيلية وبفكرة المهدية، وهي فرقه البابية.

وهي على النقيض من مذهب الوهابية. فلئن كانت الوهابية لا تعترف بالزمن وأثره، ولا بما ظهر من تقاليد الإسلام الجديدة وأوضاعه، فإن البابية ترمي إلى مسيرة الزمان، والنظر إلى الظروف الحاضرة، ولئن كانت والوهابية أيضًا لا تؤله أحدًا إلا الله ولا تقول: بعصمة أحد إلا الأنبياء، فإن البابية ترى — تأثرًا بالنظريات الأفلاطونية الحديثة — أن للأئمة والدعاة فيضًا إلهيًّا وقبسًا من نور الله، ومكانًا إلهيًّا، وأن المهدى والأئمة من بعده لهم عصمة الأنبياء. وأن الله يتجلى عليهم تجلًّيًا تدريجيًّا يرتقي إلى أن يصل إلى العقل الكلي.

وعلى هذه العقائد ظهر، في البيئة الفارسية، شاب ورع اسمه «ميرزا علي محمد» الشيرازي، ولد سنة ١٨٢٠ م وكان تقيًّا عرفه معاصره بالزهد والورع والتقوى، وشهد له أصحابه بالمواهب الممتازة والحماسة القوية للعبادة وأجلوه لذلك. فأثر هذا الجلال في عقل الشاب، واعتقد أنه مبعوث من الله لأداء رسالة دينية عالية، وأن العناية الإلهية اصطفته لتحقيقها، وأن رسالته هذه حتمية؛ لأن الزمان والبيئة يحتاجان إلى مبعوث جديد، فأعلن أنه «الباب» الذي يدخل الناس منه إلى الإمام المستور الذي هو مصدر لكل خير في العالم. ثم تطور الأمر عنده فاعتقد أنه فوق أن يكون مدخلًا للإمام المستور، بل هو نفسه الذي يهدي العالم للحق، ويهديهم إلى سبيل الرشاد. وأعلن أنه المهدى الجديد

المنتظر، وأن المهدي المنتظر حل فيه حلولاً مادياً جسمانياً، كما كان من أمر الحلاج في اعتقاده أن الله حل فيه، إذ كان يقول: «ما في الجبهة إلا الله»، وكما كان يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن جسمان حللنا بدننا

وكان «الباب» هذا يقول: إن قبساً من الله حل في الأنبياء كموسى وعيسى ومحمد، وأنه حل فيه أيضاً، وكان ينهاض فقهاء فارس – وكل فقيه منهم مجتهد يسمى الملا – فيذمهم، ويرميهم النفاق والملق والجشع وحب الدنيا والبعد عن الآخرة، وكان يفسر القرآن على عقيدة باطنية تفسيراً رمزيّاً، ويتأول نصوصه. ولم يكن يؤمن بشعائر الإسلام كلها وتفاصيلها ويرى أنها مرهقة، وأنها فوق طاقة البشر في الوقت الحاضر، وأنه ليس معنى البعث الحياة بعد الموت، وإنما البعث يحصل مرازاً بالتجدد الدوري، وهي هي التي تسمى في القرآن بالحياة الأخرى. ولم يكتف بهذا الجانب الديني بل دعا إلى أخلاق تعتمد على العقل والذوق، فطالب مثلاً بالمؤاخاة لا على أن المسلم أخو المسلم فقط، بل على أن الإنسان أخو الإنسان من غير تفريق بين غني وفقير ولا بين مسلم ونصراني ويهودي ووثني، ودعا إلى المساواة بين الرجل والمرأة؛ لأنها شريكة له في الإنسانية، نعم إن الرجل بحسب تكوينه له وظائف يستطيع أن يقوم بها. ولا تستطيع أن تقوم بها المرأة والعكس، ولكن فيما عدا ذلك فالكل سواء في الميراث وفي رفع الحجاب، وأنكر الطريقة العرفية المتبعة في الزواج، فوضع تعاليم أخرى تتعلق والطلاق وبناء الأسرة وطرق التربية، وبذلك أضاف إلى تعاليمه الدينية تعاليم اجتماعية أخرى، وأضاف إلى ذلك أيضاً تعاليم تتعلق بالحروف وبالأعداد، وجعل للحروف جملة لها دلالتها الرمزية، وكان مما قدسه العدد (١٩)، واستند في ذلك على ما جاء في القرآن ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، واستند على هذا العدد في تنبؤاته وفي أفكاره، وقال: إنه في دعوته هذه يقوم مقام الأنبياء الأئمة، وأنه موضوع للتجلي الروحي الإلهي، وقد خلف كتاباً سماه «البيان» أودع فيه كل تعاليمه وأرائه، وكان من أسباب نجاحه فتاة جميلة فصيحة اسمها «قرة العين» كانت تؤثر في الناس بجمالها وفصاحتها، وتطبق على نفسها تعاليم «الباب»، ولكن تعاليمه هذه مست السياسة، ولو من طريق غير مباشر، فلئن كان «الباب» معصوماً ممتنعاً بالتجلي الإلهي وحده، فمعناه إذاً أن «الشاه» لم يتمتع بهذه الميزات وأنه أقل منه درجة؛ ولذلك حاربه الشاه وحارب أتباعه. وقبل أن يموت الباب اختار اثنين عدهما خير أتباعه هما «صبح أزل» و«بهاء الله» غير أنه كما رأينا دائمًا لا يتسع العالم لزعيمين

على شيء واحد، كما حدث للأمين والمأمون وكما حدث لخلافاء الإسكندر، وكما حدث للسنيين والشيعيين أنفسهم، فتفرق أتباع الباب بعد موته إلى فريقين فريق يتبع «صبح أزل»، وفريق يتبع «بهاء الله» وكل فريق يرى الفريق الآخر خارجاً عن المذهب ويتبادلون المطاعن، وكان التابعون لصبح أزل أقل من التابعين لبهاء الدين، ولكن الشاه على العموم طار لهم ففر أتباع صبح أزل إلى العراق، ثم ذهبوا إلى جزيرة قبرص، وأما «بهاء الله» فقد نفي إلى «أدرنة»، وكان طابع «صبح أزل» طابع المحافظين يرى التمسك بتعاليم الباب، وطابع «بهاء الله» طابع الأحرار إذ يرى أن تعاليم الباب تتطور بتطور الزمان والمكان، وأن الباب ليس إلا ممهدًا لبهاء الله، وأن بهاء الله هو الذي حل فيه النور الإلهي والقبس الإلهي. واعتمد بهاء على نص جاء في كلام الباب، وهو قوله: «سيظهر في يوم من الأيام من هو أعظم مني»، وتلقب بهاء الله «منظر الله»، وقال: إنه هو الذي تتجلى في طلعته ذات الله كما تتجلى طلعة الإنسان في المرأة، واعتقد فيه أصحابه أنه فوق البشر، ووضع باللغة الفارسية كثير من الأناشيد في مدحه، وقد وضع بهاء الله كتاباً باللغة العربية وباللغة الفارسية، منها كتاب فارسي اسمه «الكتاب الأقدس»، وهو يشير بهذا الاسم إلى أن كتابه أقدس من التوراة والإنجيل اللذين أطلق عليهما الكتاب المقدس، ومن القرآن الذي يقدسه المسلمين، وزعم أنه قد بشر به الأنبياء من قبل كما بشر المسيح بمحمد، وأنه له تعاليم خاصة لا يبوح بها إلا من قدر عليها من الخاصة كما كان للنبي محمد تعاليم خاصة لم يبح بها إلا لعلي، وباح علي بها لخاصته حتى وصلت إلى الأئمة، وأن رسالته نسخت رسالة «الباب»، ولكنها اتفق معه على معنى الإنسانية والدعوة إليها، وقال أيضاً: إن خير الناس من جعل العالم كله وطنًا له، ورمي العقائد القديمة بالضيق والجمود وبث فكرته في العالم كله، وأرسل الدعوة إلى الملوك والأمراء ورؤساء الجمهوريات، وإلى الشعوب من طرق مختلفة، وكان له تنبؤات صحيحة، من ذلك ما تنبأ به من سقوط نابليون الثالث قبل سقوطه بأربع سنوات، وكان يرمي إلى أن تكون ديانته كتعاليمه إنسانية عامة، كما كان يرمي أيضاً إلى أن تكون للعالم كله لغة واحدة تكون أمّاً من لغة عالية موجودة، أو من لغة كالإسبننتو، وكان أيضاً يرمي المساواة وأنه نزلت عليه سورة تسمى الملوك، أنب فيها سلطان تركياً؛ لأنّه فرق بين حقوق شعبه، وجعل لبعضهم على بعض امتيازات.

وكان يرى المثل الأعلى في الزواج الزواج بزوجة واحدة، ولكنه أباح في حالات خاصة الزواج باثنين، وأباح الطلاق للضرورة، وكان يرى أيضاً أن الشريعة الإسلامية إنما كانت

صالحة لزمانها، ولكن لا تصلح لزمانها؛ ولذلك غير من شعائرها فلم يحتفظ بصلة الجماعة إلا في صلاة الجنائز، واستنجد الحمامات الفارسية وحيد الطهارة الجسمانية وأباح لأتباعه أن يعملوا كل شيء ما لم يخالف العقل البشري، وشنع علماء وقته ووصفهم بالملق والنفاق، ويعوق الإرادة ونسخها ولم يؤمن بالحرية السياسية، وقال: إن الفرق بين الإنسان المتمدن والحيوان أن الإنسان المتمدن كبح جماح الحريات الحيوانية، وليس للحريات نتيجة إلا الفوضى وخير للناس أن يعيشوا عيشة محاكمة بالقيود المعقودة. ولما مات بهاء الله انتقلت زعامته سنة ١٨٩٢ إلى ابنه عباس أفندي، وتسمى «بعد البهاء» أو «عصن أعظم»، وقد لقيته أثناء سفره إلى أمريكا في فندق بالزيتون «ضاحية من ضواحي القاهرة»، وكانت إذ ذاك طالباً في مدرسة القضاء الشرعي حوالي سنة ١٩١٠، وسمعت حديثه وكان مما لفت نظري خضوع أتباعه له خضوع الصالحين لله، ودلني حديثه على اطلاع واسع وعلم بالفلسفة الإسلامية القديمة كفلسفة ابن سينا وابن رشد وعلم بالفلك والطبيعيات، ولكن كنت كلما سأله عن مذهبة وأركانه حول الحديث إلى مسائل عامة، وكربه أن يتكلم في هذا الموضوع، وقد زاد في تعاليم أبيه ونزع إلى التوفيق بينها وبين العقليات الغربية والأمريكية، وكان يستشهد بالكتاب المقدس على بعض أشياء تؤيد ديانته، وقام البهائيون في العالم بحركة واسعة كبيرة، حتى دخل كثير من الناس فيها، ودخل فيها عدد كبير من النساء الأمريكيات اللائي ناصرها، وكان بعضهم وبعضهن يذهبون إلى جبل الكرمل في فلسطين لرؤيه الإله الجديد، ومن أشهر الذاهبات الآنسة لورا التي كانت تصحب عبد البهاء، وتكتب احتزال ما ينطق به وتنشره في العالم، ورأينا في القاهرة عدداً غير قليل يتبعون مذهبة حتى إن اسم البابية احتفى وحل محله اسم البهائية. وقد أنشئوا على حدود روسيا بناءً عاماً يعقدون فيه اجتماعاتهم، كما اتخذوا مكاناً فسيحاً في بغداد يجتمعون فيه.

ولما استولت الحكومة عليه رفعوا عليها دعوة. وكانوا يؤثرون التقية كسائر الفرق الشيعية، ويخفون دينهم عن غير أتباعهم، ولهم أتباع كثيرون في فارس يقدرون بثلاثة ملايين. وأتباع كثيرون في أوروبا وأمريكا، ولهم مجلة في أمريكا تصدر منذ سنة ١٩١٠ وهي تصدر تسعه عشر عدداً في السنة طبقاً لتصديق الباب دائمًا لهذا العدد، ومصدرها الرئيسي شيكاغو. وهم يبنون بناءً يريدون أن يكون بناءهم المعتمد وسموه «شرق الأذكار». ومن اعتقد البهائية من اليهود استخرج من التوراة ما يؤيدتها كالآية التي وردت في سفر أشعياء، وهي «يولد لنا ولد ونعطي ابنًا وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبةً مشيراً إلهاً قديراً أبداً أبداً».

وقد كتب الأستاذ براون في كتاب دائرة المعارف في الدين والأخلاق يالإنجليزية مقالاً بديعاً في البابية، يدل على بعد النظر وسعة الاطلاع وعمق التفكير، ومن أحسن ما فيه إظهار الأثر الاجتماعي للفرقـة البابية والبهائية.

وإذ كان البابية والبهائية تدعـون إلى السلام، وتبطلـان الجهـاد الذي جاء به الإسلام، وتعـدان الناس إخـوانـاً لا فـرقـ بين فـارـسيـ وإنـجـليـزيـ ولا شـرقـيـ وأـورـوبـيـ، كان من مـصلـحةـ الإنـجـليـزـ أنـ يـحتـضـنـوـهـمـاـ؛ لأنـهـمـاـ تـمـكـنـاـنـهـمـ منـ الـاستـعـمـارـ منـ غـيرـ مـقاـوـمـةـ ولاـ جـهـادـ، وـالـدـعـوـةـ إـلـىـ السـلـامـ إـنـمـاـ تـكـوـنـ صـالـحةـ يـوـمـ يـتـفـقـ عـلـيـهـاـ النـاسـ جـمـيـعـاـ، أـمـاـ إـذـاـ دـعـاـ إـلـيـهـاـ الـضـعـفـاءـ وـبـقـيـ الأـقـوـيـاءـ يـتـسـلـحـونـ كـانـتـ صـحـبـةـ كـصـبـةـ الـحـلـمـ لـلـذـئـبـ وـالـأـعـزـلـ لـلـمـسـلـحـ.



## القاديانية

وأتى على أثرها فرقه القاديانية زعيمها «غلام أحمد»، وانتشرت في الهند، والقاديانية نسبة إلى قاديان، وهي بلدة من إعمال البنغال.

وقد زعم «غلام أحمد» هذا أن عيسى ابن مريم مدفون بموضع قريب من كشمير، وهو قبر بوذى قديم. ويقول: إن عيسى ذهب إلى هذا المكان فراراً من اليهود ببيت المقدس وأن الوفاة هناك، وزعم أن هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤيده، كما زعم أنه المهدى المنتظر وأن الله حل في جسده وأن له أيضاً رسالة عالمية لا للمسلمين وحدهم، وكذلك مهديته من جنس سلمي كالباب لا من جنس عنيف كالباطمية والحساشين، وأعلن عدم الجهاد وحب إلى أتباعه السلم والتسامح وعدم التعصب، ووجههم إلى العلم والثقافة، واجتهد في أن يكون ظاهره من المسلمين.

وقد بلغ أتباعه نحو مائة ألف والتالف حوله بعض الهندو المثقفين ثقافة أوروبية، وأنشئوا مجلة إسلامية في لندن، وتوفي غلام أحمد هذا سنة ١٩٠٨ في لاهور وكتب على قبره، «ميرزا غلام أحمد موعود»، ومعنى موعود مهدي، وأوصى بإنشاء مجلس ينتخب انتخاباً حرّاً، ومن وظيفته أن ينتخب الرئيس الروحي للأحمدية، وقد احتضنت هذا المذهب أيضاً الدولة البريطانية للأسباب التي ذكرناها من قبل، وقد ترجموا القرآن إلى الإنجليزية وطبعوه طبعاً متقدناً بالعربية والإنجليزية، وعلقوا عليه بالإنجليزية بعض تعليلات غريبة كدعواهم أن الجن هم الغرباء وكتفسيرهم آية سليمان **﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمُؤْتَمَّ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا ذَابَةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَانَهُ﴾** بأن المعنى أن هؤلاء الغرباء كانوا يستولون شيئاً فشيئاً على بعض البلاد التي كان يمتلكها، فلما مات سليمان ما دلهم على موتة إلا انفتاح الباب أمامهم، وعدم انتقام سليمان منهم وإخضاعهم، وهذا تدور التفاسير والتعليقات على تأويل كل شيء يدل ظاهره على مخالفة العقل.

وإذا كانت تعالييمهم وتعاليم الباب والبهاء غير واضحة تمام الوضوح، وكان اضطهادهم سبباً في ضياع كثير من مذهبهم وروايتها عن طريق أعدائهم، فربما نسب إليهم ما ليس من رأيهم، والله أعلم.

وقد قال أحد الكتاب المحدثين عن فرقة القاديانية: وسهلت الحكومة البريطانية لأتبع غلام أحمد التوظف بال محلات الحكومية العالمية وإدارة الشركات الكبيرة والمفوضيات في المالك الخارجية، وجعلت منهم ضباطاً في رتب كبيرة في مخابراتها السرية، وفوضت إليهم إمارة مدن كبيرة، وجعلت البعض منهم وكلاء الإمارات وغير ذلك من أمور الدولة الهامة.

وحين تم تقسيم شبه الجزيرة الهندية إلى دولتين: باكستان وهندستان، انحازت أكثريه هذه الفرقة إلى الباكستان، وأخذ أفرادها يجدون ويجتهدون في نشر مبادئهم الهدامة بطرق مختلفة، وأسسوا في معظم البلاد العربية وغيرها دون المملكة السعودية مراكز لتبلیغ، ونشر ادعائهم الكاذبة بجد ونشاط غير عادي.

وأعلن غلام أحمد أن من لا يصدق بنبوته لا يدخل الجنة أبداً، وأمر أتباعه بأن يصلوا مع بعضهم ولا يصلوا وراء إمام آخر مسلم لا يعتقد اعتقادهم، ولا يصلوا على الجائز سواء كانت جنازة صغير أم كبير.

وجاء في بعض كتبه: «أنا أحمد الذي بشر به عيسى — عليه السلام — وجاء نصه في القرآن ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، هذه الآية في حقي. وليست في حق محمد حيث إنه محمد وأنا أحمد. « وأنكر الاعتقاد بأن لا نبي بعد محمد، بل إن ذلك قلة أدب في حضرة النبي ﷺ وباب النبوة مفتوح، والدين الذي يغلق باب النبوة دين ميت».».

«إن الله أخبر بأن قاديان هي أم القرى وهي الحقيقة، والآن تحولت البركات التي تنزل بمكة والمدينة إلى قاديان». «ولا شك أن ذكر قاديان في كلام الله موجود حيث ورد: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾. والمسجد الأقصى الذي ورد ذكره في القرآن هو الذي بناه غلام أحمد». ويعلن غلام أحمد بأن من لم يطعه ولم يبأيه، فقد عصى الله وعصى رسوله، وتعدى الطريق ومصيره إلى جهنم.

ومن تعالييمهم أن الحج يحتاج إلى مال كثير يصرفه الحاج في سفره، وقد يصل إلى حد الإسراف وأكثر هذا المال يذهب إلى صناديق الشركات الأجنبية التي لا تفيid المسلمين

شيئاً، ويقترون عليهم أن المال الذي يصرف على الحج يجب أن تفتح به مدارس لتعليم القرآن الكريم، حيث يستفيد الواحد منه إلى الأبد ... إلى أمثال هذه الدعوى. وهذه الفرقة تسمى أحياناً القاديانية، وأحياناً تسمى الأحمدية نسبة إلى غلام أحمد، وأكثر المسلمين ينفرون منهم، ويعتقدون أنهم مارقون عن الإسلام خارجون على أهله، وقد صرخ مصطفى كمال باشا وشيخ الإسلام ومفتى الإسلام بخروج القاديانية عن الإسلام. ويزعم محمد علي وأتباعه أنهم مسلمون، وأن غلام أحمد ليس إلا مسلماً ومجدداً، ولكن في كتبهم الأساسية ما يثبت غير ذلك، فقد نشر في مجلة الديانات مجلد ٦ ص ٢٩٩ أن (محمد علي) رئيس القاديانية كتب أن الصاحب ميرزا «نبي» آخر الزمان، ويعنون بميرزا هذا غلام أحمد، وجاء في الخطبة الإلهامية لميرزا هذا قال: رأيت في المنام أني إله وأنا في اعتقادي كذلك «ع كمالات ص ٥٦٥»، ويقول: إني أعتقد أن الإيحاءات التي ألقاها معصومة من الخطأ كذلك التي كان ينزل بها القرآن «الدر الثمين». وقال: «إن إيماني بما يوحى إلى ليس أقل — على كل حال — من إيماني بالقرآن الكريم». وجاء في أخبار الأخبار «أن الله يقول له أى ميرزا: أخبر الناس كافة أنك الرسول المقدس إليهم جميعاً»، وجاء في كتاب آخر، أن الله الحق هو الذي أرسل نبيه في قاديان، وأن مدينة قاديان ستظل في مأمن من الوباء إذ كانت محل إقامته، ثم تدلى فزعم أنه أعظم من الحسين بن علي، وأنه المهدى المنتظر.

كما نشأ في الهند زعماء كثيرون تسموا بالمهدي، ولكن دعوتهم لم تلق النجاح الذي لقيته البابية والبهائية والقاديانية، كدعوى السيد أحمد الذي ظهر في أوائل القرن التاسع عشر في جهات الهند، وحارب الأشياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦، ولكن لم تقم له قائمة.



## السنوسية

وربما كان من أشهر دعاة المهدية في العصور الحديثة أيضًا السيد محمد المهدى السنوسي ابن الشيخ محمد السنوسي، ظهر في المغرب في أواسط القرن الثالث عشر الهجري، ونزل جغبوب على مقربة من واحة سيوة، وقد أنشأ زوايا كثيرة في أماكن متعددة يبلغ عددها نحو ثلاثة زاوية، وانتشرت طريقته انتشاراً عظيماً، ولما توفي لمح قبل وفاته أن المهدى المنتظر سيظهر قريباً، وأن ظهوره سيكون خاتم القرن الثالث عشر الهجري، وقد رأيت كتاباً عنوانه «الدرة الفريدة في بيان الطريقة السنوسية» مطبوعاً بمطبعة الجريدة بمصر، وتدور مقدمته على إثبات أن السيد السنوسي هذا هو المهدى المبشر به، ومما جاء في تلك المقدمة قوله: «أعلم أن أستاذنا السيد محمد المهدى — رضي الله عنه — كانت ولادته بمسافة من الجبل الأخضر، سنة ١٢٦٠ أول ليلة من ذي القعدة عند الفجر وغيابه عن الأعيان لحكمه أرادها الواحد المنان ضحوة يوم الأحد ٢٤ صفر سنة ١٣٢٠ ...».



## مهدى السودان

وأخيرًا كان المهدى في السودان، وقد كانت له حركة قوية شغلت الحكومات زمناً طويلاً. وقد ولد المهدى هذا واسمه محمد بن عبد الله في دنقلا، وأسرته تقول: إنها شريفة من نسل رسول الله، وقد درس الفقه ثم تصوف علماً وعملاً وقد خالف شيخه في التصوف وتزهد وتقشف، وكون لنفسه مريدين وأنصاراً على مذهبه الخاص وألف لهم الكتب الكثيرة يدعوهم فيها إلى طريقة، وما زال يكبر في نفسه حتى اعتقد أنه المهدى المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً وصلاحاً، وقوى هذه العقيدة في نفسه صديقه عبد الله وهو المعروف بالتعابishi الذي أصبح خليفة من بعده، وأصله من دنقلا كذلك وقد حسن له عبد الله هذا الرحلة إلى كردفان، وفي أثاثها اتصل بكثير من رؤساء القبائل، وساعد على نجاح دعوته بعض الأهالى للحكومة المصرية لما كان يوم به بعض الولاة من فرض ضرائب ظالمة، ومعاملة قاسية وما كان من إعلان الحكومة المصرية عزمها على إلغاء الرقيق، وقد أثر ذلك أثراً سينمائياً في الحياة الاقتصادية في البلاد، فلما قويت حركته بعث رعوف باشا حاكم السودان إلى المهدى يأمره بالمثلول بين يديه في الخرطوم؛ لأنه كان يستهين بأمره فلم يأبه المهدى بأمره، بل أجاب عن هذا بإعلانه أنه سيد البلاد الحقيقى، وأعلن الجهاد ضد الكافرين وهو يقصد بالكافرين ما يشمل المسلمين الظالمين، فأرسل رعوف باشا حملة عليه مكونة من مائتى رجل ببنادقهم ومدافعهم، وكان المهدى إذ ذاك يقيم في جزيرة آبا فأمر رعوف باشا جنوده بإطلاق النار على المهدىين، وكان ذلك نهاراً ولم يكن للمهدى بنادق ولا مدافع، فأمر أصحابه بالسكتوت وأن يكمنوا في الأدغال حتى يجيء الليل، ثم أمرهم بالخروج من الأدغال ليلاً، فهجموا على الجنود المصريين وأفونوهم، واستولوا على ذخائرهم ... ومن ذلك الوقت حاربهم المهدى بسلاحهم، ثم انتقل إلى كردفان ليكون بعيداً عن مقر الحكومة المصرية في الخرطوم ... وسیرت الحكومة

المصرية حملة أخرى قوية مؤلفة من نحو ستة آلاف رجل، ولكنها لم تتخذ وسائل الوقاية المعتادة، وكان من العادات المتتبعة في السودان أن يحاط الجندي ليلاً بأسياج شائكة، فلم يفعلوا ذلك هذه المرة فأتاهم المهدى ليلاً بجنوده وأبادهم، وإذا ذاك عظم شأنه واشتد أتباعه إيماناً به، وكان له في القاهرة أتباع يبشرون به، وتقطار الناس من جميع أنحاء السودان؛ ليروا ولی الله ويقدموا له الهدایا، وكان منظره إذ ذاك متصوفاً زاهداً يلبس جبة وسرويل من كتان ويتمنط بحزام، ولكنه فيما بعد قلد المسلمين الأولين في احتياز خمس الغنائم، وأضاف إلى ذلك مصادرته للسارقين والخمارين والدخنين للتبغ، فكثرت الأموال لديه، وانقلب متربعاً وحرم على أتباعه دراسة علم الكلام والفقه، وأحرق الكتب التي تعالج هذه الموضوعات، ولكنه أوصى بالرجوع إلى أصول الإسلام الأولى من قرآن وحديث. وما احتلت الحكومة البريطانية مصر بعد ثورة عرابي، أرادت أن تخضع السودان فبعثت عشرة آلاف مصري بقيادة هكس باشا، ولكن من الأسف أن أعلنت ذلك وأبطأت في إعداد عدة الحملة، وذلك مكن المهدى من حسن الاستعداد فهجم المهدى على المصريين غير أن المصريين صدوا هجومه أول الأمر، ثم همزوا آخره وأبيدوا عن بكرة أبيهم، فوقع السودان كله تحت سلطان المهدى وفر من كان فيه من الأوروبيين إلى مصر، واستسلم للمهدى سلاطين باشا، وكان قبل ضابطاً نمسوياً ثم حاكماً على دارفور، ثم اعتزمت الحكومة المصرية مصالحة المهدى والتخلّي عن السودان، وأرسلت لهذه المهمة غوردون باشا، فأرسل غوردون إلى المهدى يعترف به سلطاناً على كردفان، ويعترف بإباحة تجارة الرقيق فأجابه المهدى طالباً إليه الاستسلام، وعزم المهدى على محاصرة الخرطوم وفيها غوردن باشا، فتقدم إليها وقد أخطأ غوردون فلم يعلن إخلاء المدينة من غير المحاربين فكانوا سبباً في الاضطراب، والحاجة الشديدة إلى الضروري من الأقوات وأخيراً أمر أتباعه بالهجوم على المدينة، ففتحوها وقتل غوردون وترك البريطانيون السودان مؤقتاً.

وأحاط المهدى السودان بسياج قوي حتى يتقى شر الدسائس، واضطر أن يمنع السودانيين مؤقتاً من الحج، ولكنه أصيب في منتصف يونيو سنة 1885 بالtifous، فمات بعد ذلك بأسبوع وأوصى بالخلافة من بعده لصديقه القديم عبد الله، وكناه بأبي بكر وهو عبد الله التعايشي المشهور.

وقد أغتر عبد الله هذا بقوته وسلطانه، فاعترض غزو مصر وهو مشروع كان ينوي المهدى تحقيقه وخاف المصريون هذا العزم، فسيير سنة 1889 جيشاً إلى مصر على رأسه القائد عبد الرحمن النجومي، وأمره باجتياز وادي حلفاً، فأنزلت حماية وادي حلفاً

بجيشه خسارة جسيمه في أثناء زحفه، وخرج أقرباء المهدی على التعايشي لما أحسوا بضعف سلطانه، وكان من أقواهم السيدة زوجة المهدی.

وفي خريف سنة ١٨٩٦ «قضى اللورد كتشنر — وكان سرداراً لمصر — على إمبراطورية المهدی»، وختمت هذه المأساة. ثم كان في آخر القرن التاسع عشر حركة مهدية أخرى في الصومال، إذ ظهر في الصومال محمد بن عبد الله حسن، وقد حج إلى مكة سنة ١٨٩٥ وهناك تصور واعتنق فكرة المهدية حتى إذا رجع إلى وطنه دعا إلى طريقته، وسرعان ما اكتسب نفوذاً كبيراً في قبيلته، ولكن الحكومة البريطانية قبضت عليه سريعاً باكتسابها له، واستخدامها إياه في تهدئة الثورات التي تقوم حولها.

وأخيراً في أثناء الحرب العالمية الأولى استطاع الإيطاليون هناك أن يقضوا على سلطنته في شمال الصومال، ومات سنة ١٩٢٠ بعد أن بث في أتباعه تعاليم على غرار تعاليم المهدی.



## خاتمة

هذه صورة موجزة لما سببته مأساة فكرة المهدية، ومنها نفهم أن ثوراتها تكاد تكون متلاحقة منها ما كان يبلغ أقصى العنف كالحشاشين، ومنها ما كان يسالم كالبابية. وأيًّا ما كان فقد أثرت هذه الحركة في الدول الإسلامية المختلفة من أموية وعباسية وعثمانية، كما شجعت الصليبيين على فهم ما عليه المسلمون من ضعف، فهاجموهم واثقين من النصرة عليهم.

وبعد،

فمن المسؤول عن ذلك؟ ...

إن الشيعيين اضطهدوا من السنين وكانوا يدعون أنهم إنما يفعلون ذلك دفاعًا عن أنفسهم، ولكن كانت غلطة يزيد بن معاوية في قتل الحسين غلطة كبرى لم يمكن إصلاحها، فخللت تعلمها على طول الأزمان. ولم يكتف السنيون بذلك بل جعلوا يقتلون كل إمام طالبي يظهر، ونحن إذاقرأنا كتاب «مقاتل الطالبيين» لأبي فرج الأصفهاني رعبنا من كثرة ما وقع على العلوبيين من قتل وتعذيب وتشرد، وهذا القتل المتتابع حمل العلوبيين أن يختفوا، وقام حول الاختفاء دعاً غير معقوله من عصمة الأئمة ونحو ذلك؛ ولهذا التعذيب والقتل أيضًا اضطر الشيعيون أنت يعتنقوه مبدأ التقى، ومعناه ألا يبيحوا بأسرارهم ومعتقداتهم إلا من يثقون بهم، وأنشئوا لأنفسهم أدبًا شيعيًّا لا ينقطع وهو يقابل الأدب السنوي، ولئن كان كثير من الأدب السنوي كان يقال في مدح الخلفاء والملوك والأمراء السنين، فإن الأدب الشيعي كان يقال في مدح الأئمة والرثاء الحار في قتلهم.

وقد أثرت هذه الأحداث المتتابعة أحزاناً عميقة في نفوس الشيعة، وانقلبت أحياناً إلى ثورات مهدية نقلنا بعضها، كما أثارت دموعاً غزيرة حارة حتى ضرب المثل برقة دمعة الشيعي، وقال القائل:

أرق من دمعة شيعية تبكي علي بن أبي طالب

وألف الشيعة الضطهاد والبؤس والشقاء حتى تمرسوا عليه، وانقلبوا بعد ذلك هذه الحالة إلى مؤامرات سرية وتدابير خفية حتى لو قلنا: إنهم مهروا في ذلك كمهارة الماسونية لم يبعد عن الصواب، وإلى الآن يجدون هذه الأحزان في العشرة الأولى من المحرم، وينشدون القصائد ويضربون أنفسهم بالجنازير ذكرى لأساة كربلاء، ويخصون بالسخط والكراهية يزيد والله الأمويين ويقول بعضهم: ما لحياتنا قيمة لو لم نحزن على مقتل الحسين ونبكي عليه. ويرى بعضهم أن الحزن على الحسين علامة الإيمان الصحيح.

ومما زاد في العطف عليهم أنهم أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأنهم معارضون للدولة الرسمية القائمة والمعارضون دائمًا ينالون عطف الشعوب كالذى نراه بين أحزابنا اليوم ... يضاف إلى ذلك أنهم مضطهدون، وكذلك الضطهاد محل العطف وقد أنجح موقفهم تواли الظلم من رجال الدولة الرسمية حتى لا يكاد ينجو من بذلك أحد منهم، فإسراف في الترف ومصادرات للأموال، وضرائب قاسية ظالمة وعكوف على الشراب إلى غير ذلك.

نعم إنه كان من الجميل جدًا كرههم لظلم الخلفاء الرسميين، وإفهمهم الناس هذه المظالم التي ترتكب وحثهم على المطالبة بتحقيق العدل ورفع الظلم، ولكن يؤخذ عليهم شيئاً:

الأول: أنهم مزجووا هذه الدعوة بالأساطير، ولم يكتفوا بالرجوع إلى العقل.

والثاني: أنهم لما ملکوا ونحوها فعلوا في حكمهم مثل ما فعل الأمويون والعباسيون من مظالم ونحوها، فالفاطميون أسرفوا أيضًا في الترف، واستمتعوا في مصر بكل أنواع النعيم كالذى روى عن هارون الرشيد.

وكانت ثروة الفاطميين تفوق القدر ويصعب تصديقها على العقل، فيقول المقرizi مثلاً: إن رشيدة بنت المعز خلقت من العملة الذهبية نحو ألف دينار وسبعمائة ألف

دينار عدا الجوادر والحلبي، وخلفت ابنته الأخرى واسمها عبدة نحو سبعمائة وخمسين ألفاً عدا الصناديق التي تحتوي على خمسة أكياس من الزمرد، وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلي، كما أن المعز اشتري ستارة من الديباج من فارس بنحو اثنى عشر ألف دينار، وأولعوا بالتصوير مع أنه محرم في الإسلام فقالوا: إن اثنين من المصورين كان ينافس أحدهما الآخر هما القصیر وابن عزيز، أحدهما صور الراقصة في ثياب بيضاء في قوس ملون بالسوداء يحسبها الناظر داخلة فيه، والآخر صور فتاة بثياب حمر في قوس أصفر يحسبها الناظر بارزة منه، وال الخليفة الظاهر كان يعكف عن اللذائذ واللهو من خمر ونساء، ويترك أمور الدولة لوزرائه وقواده وهم يقابلونه كل عشرين يوماً مرة، ثم يدعى هؤلاء النواب أنه أوعز إليهم بكل شيء، وأنه إمام معصوم متفرغ للعبادة. وقد كان يحدث هذا من الظاهر أيام كان الناس في مصر في مجاعة كبرى لا يجدون الخبز الضروري.

ولقد بدأت الدول الفاطمية في مصر ببذخ وترف، وانتهت بما يدلنا على غاية البذخ والترف، فبدأت بالهدايا التي قدمها جوهر للمعز، وانتهت ببيع صلاح الدين ما وجده في قصر المستنصر، وكل هذا التعرف والنعيم كان على حساب الشعب نفسه.

ولما حضر المعز أشار إلى طريقة حكمه إشارة مختصرة، وهي سيفه وذهبه حتى ضرب المثل بسيف المعز وذهبه، وليس حكم البلاد بواسطة السيف والذهب هو الحكم العادل الذي يطالب به المهدى المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً، ونقرأ سيرتهم في موائدتهم وأحتفالاتهم، فنعجب من كثرة فخختهم وعظمتهم وغنائمهم، مع ما يحكي من فقر الشعب، وكان للمعز مثلاً يوم حج شمسية نصبت له مصنوعة من الذهب، مزينة بالزمرد الأخضر والياقوت، وكتب عليها آيات الحج بزمرد أخضر، وحشيت الكتابة بدر كبير لم ير مثله، حتى إنها لما جرت نصبها عدة فراشين لكترة ثقلها، وصنع سرير الملك من الذهب، واستعمل فيه مائة ألف مثقال، وعشرة آلاف مثقال، وكل الحياة من هذا القبيل ... هذا من ناحية ترف الخلفاء الفاطميين وبؤس الشعب. ومن ناحية أخرى كم قتل الحاكم بأمر الله وكذا فعل غيره من الخلفاء، ولما تولى الظاهر الفاطمي عكف على اللهو والملذات بما لا يقل شأنه من ترف المترفين المستهتررين من الخلفاء العباسيين، ولما أزال صلاح الدين ملوكهم وكل بالمحافظة على قصورهم الطواشى قراقوش، وتسليم القصور وفيها من خزائن ودواوين وأموال، ونفائس ما عظم عن الوصف، وقد قالوا: إن صلاح الدين أمر ببيع ما في القصور، فاستمر البيع فيها نحو عشر سنين وكان من

الموجود فيها مائة صندوق من الكسوة الفاخرة الموسحة المرصعة، وعقود ثمينة وجواهر نفيسة، وكان فيها آلاف من العبيد والخدم وألاف من الجواري ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأولاده، وليس هذا الغنى المفرط إلا من دماء الشعب الفقير البائس.

وكان حكم القرامطة والشاشين لا يقل شأنًا عن هذا، نعم إنهم كانوا يسرون بين الناس في الغنى والفقير، وكانوا يضربون الضرائب على الأغنياء ويصرفونها على الفقراء، ولكن لهم ناحية أخرى سيئة جدًا في حكمهم وهي القسوة والقتل والتخريب والهدم، وهي أعظم فظاعة من الغنى والفقير.

قال شاهد عيان يوم دخل القرامطة الكعبة: رأيت رجلًا قد صعد البيت الحرام ليقلع المizarب، وكانت أطوف بالبيت وإذا بقرمطي سكران قد دخل المسجد بفرسه، فضفر له حتى بال في الطواف وجرد سيفه يضرب به من لحنه، وانهالوا مرة على قوافل الحاج يسلبون وينهبون ويفسقون ويقتلون، وأتى القرامطة من الأفعال ما تُقْسِعُ منه الأبدان، وأخذوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الحلي الثمينة والتحف القديمة التي كانت معلقة على جدران الكعبة أو محفوظة في خزائنها حتى قالوا: إنهم استخدموها نحو خمسين جملًا لنقل ما نهبوه من الكعبة فقط. ومائة ألف لما غنموا من مدينة مكة وضواحيها، وكان مما نهبه القرامطة الحجر الأسود كما ذكرنا من قبل، وخرجوا من مكة ينشدون علينا:

لصب علينا النار من فوقنا صبًّا	فلو كان هذا البيت لله ربنا
محللة لم تبق شرقًا ولا غربًا	لأنّا حججنا حجة جاهلية
جنائز لا تبغي سوى ربها ربًّا	وأنّا تركنا بين زمزم والصفا

والشاشون نكلوا بالبلاد تنكيلًا فظيعًا، وخوفوا العظام وأهربوهم، والموحدون اضطهدوا ابن رشيد الفيلسوف وسجنه بعد أن أكرموه، ومهدي السودان كان حاكماً مستبديًا يقسوا ولا يرحم، وينكل بأعدائه وخصومه تنكيلًا شديداً، فحكوماتهم كانت تتعني على الظلم وتظلم، فلا رأينا عدلاً من السنين ولا من الشعوب «وكلهم في الهم شرق». والعدل الذي كان يقول به دعوة المهدي المنتظر لم يتحقق في كثير ولا قليل، ولكن ظلماً يقابل بظلم، وشعراً يطمح إلى العدل فيخيب أمله، نعم إن عقائد هذه الشيعة وأسرارها وما قيل عن تعاليمهم متناقضة، فبينما يقول مؤيدو الإسماعيلية: إنهم منعوا السكر وحتموا الزواج بواحدة إذا بخصومهم يرمونهم بشرب الخمر والاعتداء على النساء، وقد

زاد في بلبة الأفكار والتناقض في ذكر المعتقدات قلة ما أثر عنهم من كتب وتعاليم. ولكن مهما اختلف المخالفون في المعتقدات، فاما مانا الأعمال الظاهرة التي لا تشرف والتي لا يستطيع أحد أن ينكرها، سواء أكان من المعارضين أم المؤيدين، ولو كانت هذه التعاليم قد دخلت قلوبهم وأنهم يستمدونها من مهدي متضرر، ومن إمام حق مستتر لانعكست عقائدهم على أعمالهم، أما الأعمال سيئة فما قيمة المعتقدات ولو صحيحة. حكومات الخلفاء الرسميين لم تكن ترضي عاقلاً، وحكومات الشيعيين كذلك لم تكن ترضي عاقلاً أيضاً، والناس إنما يطمحون بعد هذا الفشل إلى إمام عادل يتبع العقل لا المهي المتضرر، وربما كان الفرق بين ظلم خلفاء بني أمية وبني العباس من جهة والشيعيين من جهة أخرى أن الأولين كانوا يظلمون ويجهرون، والآخرين كانوا يظلمون ويستترون.

على العموم كان الخلفاء الرسميون يظلمون الشيعة وينكلون بهم، وكان الشيعة يثيرون الثورات ويدبرون الدسas والمؤامرات، والنتيجة ظلم من هذا وظلم من ذاك. في ضوء هذا لا نستطيع أن نحدد المسئولية، هل هي على أهل السنة أو على أهل الشيعة، ونحאר كما حار أبو العلاء في قوله:

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها  
عنب وخرم في الإناء وشارب فمن الملوم أشارب أم حاسي

وربما كان الأصح أنهم مسئولان معاً: هذا السندي بجوره وظلمه وسفكه لدماء العلوين من غير حساب، وهذا العلوi بالانتقام من غير وقوف عند حد، وكلاهما لم ينظر في المسألة إلى مصلحة المسلمين، وإنما نظر فيه إلى نفسه وحزبه، والله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون.

ونحن إذا ذكرنا حللنا فكرة المهدوية إلى عناصرها الأولية، وجدناها ترتكز:

(١) على الاعتقاد بإمام من آل البيت، وأن هذا الاعتراف أساس من أساس الإيمان كالاعتقاد بنبوة محمد، روي عن أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفر: إنما يعبد الله من يعرف الله. فأما من لا يعرفه فقد ضل ضللاً بعيداً. قلت: جعلت فداك بما معرفة الله. قال: تصديق الله - عز وجل - وتصديق رسوله، وموالاة علي، والانتمام به وبائمة الهدى - عليهم السلام، والبراءة إلى الله - عز وجل - من عدوهم، وليس بمسلم حقاً من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً، وإمام عصره ومن لا يفوض أمره للإمام، ويبذل نفسه في سبيله، فالعقيدة في الإمام ركن سادس من أركان الإسلام.

(٢) عصمة الأئمة وعصمة المهدي المنتظر، فالآئمة لا يذنبون بطبيعتهم ولا يفكرون في ذلك. وقد ثارت خلافات في عصمة الأنبياء بالطبيعة، ورووا أن رسول الله ﷺ قال: «توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»، وقال: «إنه ليغافن على قلبي»، فهذه الأحاديث ونحوها لا تؤيد معنى العصمة التامة، ولكن الشيعة لا يختلفون في عصمة الأئمة.

(٣) علم الأئمة والمهدي بالغميقات مع أن النبي ﷺ يقول: «ما لي ولهم يسألوني عما لا أرى، وإنما أنا عبد لا علم لي إلا ما علمني ربِّي». وفي القرآن الكريم: **﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ﴾**.

(٤) الاعتقاد بأن للأئمة نوراً إلهياً أو قبساً من نور الله على نحو يرفعهم فوق المستوى البشري المألف، وغلا بعضهم في ذلك فرأوا أن علياً والأئمة هم صور وأشكال، يتمثل فيها الجوهر الإلهي وأن جثمانية هذا الجوهر ليست إلا حادثاً طارئاً.

(٥) أن هؤلاء الأئمة ومنهم المهدي إنما جاءوا ليواجهوا الدهر، ويرفعوا الظلم ولذلك اقترنت دائمًا كلمة يملأ الأرض عدلاً بكلمة كما ملئت جوراً.

وقد كان لبعض الناس في عقيدة المهدوية خرافات غريبة، من ذلك أن بعضهم كان يخرج كل يوم إلى مكان معين قبل طلوع الشمس ينتظر مجيء المهدي؛ لأن بعض الأساطير فيها تحديد مكان الخروج وزمانه، فإذا لم يجدوا شيئاً عادوا منكسياً الرؤوس. ومنها ما حكاه ابن خلدون أنهم كانوا يحسبون خروج الإمام بحساب الجمل، فيحددون زمان خروجه فإذا كانوا يحسبون خروج الإمام بحساب الجمل، فيحددون زمان خروجه فإذا جاء هذا الوقت، ولم يخرج ادعوا أن هذا التاريخ تاريخ ولادته لا تاريخ خروجه.

على كل حال فإن هذه العقيدة في المهدوية وصفاتها لا تتفق وطبيعة الأشياء، فرأى خليفة معصوم وأى إنسان يعرف الغيب، وأى إنسان يختفي ويبقى مخفياً مئات السنين من غير أن يجري عليه الله حكم الموت ثم يكون عنده دائمًا عينان نضاختان فيهما عسل وماء؟ ... هذه الأشياء كلها لا تجوز إلا على السجن الذين فقدوا عقولهم ... وأظن أن انتباه الرأي العام، وتعقله يقللان في المستقبل من تكرار مأساة المهدوية. وقد نشأت عقائد ثانوية على هامش المهدوية من أهمها:

(١) أولاً: فكرة التجديد والمجدين وهي تلقي ما عند المهدية من أن المهدي يخرج ليلاقي أحداث الزمان، ويرفع الظلم ويحقق العدل.

(٢) فكرة الصوفية في القطب والغوث والأبدال، فهي فكرة تلقي ما ي قوله أصحاب النظرية المهدوية في أن المهدي أفاض عليه الله من نوره، وأن الله قبساً منه. وسنشرح كل نظرية من هذه النظريات بكلمة تبينها.

فأما التجديد والمجددون فمستند إلى حديث رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «بعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». والفتارة في ذاتها وجيهة؛ لأن التشريع دائمًا يتغير بتغير الزمان والمكان.

وفي الفقه أمثلة كثيرة من هذا القبيل، فقد رواه أن أبا حنيفة كان يقول: من غصب ثواباً وصبه أسود فقد قلل من قيمته، وكان أبا يوسف يقول: من غصب ثواباً وصبه أسود فقد زاد قيمته، والسبب في ذلك اختلاف الزمان والبيئة؛ لأن الدولة العباسية اتخذت السواد شعاراً رسمياً لها، وكان من خالفها يبكي أبا يوسف أي: يلبس البياض فارتفاع بذلك سعر الملون باللون الأسود.

وقال الفقهاء أيضًا: في الأزمنة القديمة كان الرجل إذا رأى غرفة في البيت سقط عنه خيار الرؤية؛ لأن الغرف كلها متشابهة في الشكل، وبعد ذلك اختلفت البيوت فأصبح لا يسقط عن الرجل خيار الرؤية إلا إذا رأى الغرف كلها لاختلاف هندسة الغرف.

والإمام الشافعي نفسه له مذهب قديم لما كان في العراق، ومذهب جديد لما حضر إلى مصر لاختلاف البيئة، بيئه العراق وبيئة مصر، وهذه إحدى العلل الكبرى لمشروعية النسخ، وهي أن الزمن يتغير فيقتضي ذلك تغيير التشريع، وقد أخذ الفقهاء والمؤرخون يبحثون في كل مائة سنة عن يصلح أن يكون مجدداً، قالوا: إنه على رأس المائة الأولى كان عمر بن عبد العزيز، والثانية الشافعي، والثالثة ابن سريج أو الأشعري، والرابعة أبو حامد الأسفرايني، والخامسة الغزالي، وال السادسة الفخر الرازي، والسابعة ابن دقيق العيد وهكذا.

والحق أن هذا التحديد نسخ للفكرة الصحيحة، تجديد التشريع كلما تغيرت الظروف، وقد يكون ذلك أكثر من مائة سنة، وقد يكون في أقل فليس من الضروري تحديد المائة بالوزن أو بالเมตร، وإنما فائدة «الحديث بيان الفكرة»، وذلك لا يكون في التشريع وحده بل يكون في كل مرفق من مرافق الحياة الاجتماعية.

وهذا التجديد معناه مرونة العقل لإحلال الأوضاع الجديدة محل الأوضاع القديمة، أو تعديل الجديد ليتفق والقديم، وكانت تتوارد على الشيخ محمد عبده أسئلة جديدة لم يتعرض لها الفقهاء من قبل؛ لأن البيئة خلقتها خلقاً جديداً مثل قراءة في الراديو،

ولبس البنية والتأمين على الحياة، وإيداع المال في صناديق التوفير وهكذا، مما لم يكن معروفاً من قبل، وقد عرف جان جاك روسو التجديد بأنه «الأخذ بالمبادئ الإنسانية والمبادئ العقلية والتسامح الفلسفية، وإحلال ذلك محل الأوضاع القديمة، ومحل تقديس السلطات ومحل التعصب والضيق النظر»، ويكون التجديد في كل حالة بحسبها، وقد يجد دعوة التجديد أنفسهم أمام تيارين متناقضين فيضطرون إلى منازلتهما جميعاً كالذى حدث في عصرنا في مذهب الاشتراكية، إذ رأى أصحابها أنهم مضطرون إلى منازلة فكرة الشيوعية المتطرفة وفكرة الرأسمالية الجامدة.

ويساعد على فكرة التجديد شعور الشعوب بسوء الحال، وطموحهم إلى حال خير من حالهم، ونظام خير من نظامهم، وعدل يحل محل ظلمهم لتسري الدعوة إلى التجديد وإلى التعمير سريان النار في الهشيم. ووصف سوء الحال وبث الطموح إلى خير منه هما أهم ما دعا إلى إثارة الشعوب لدعوة المهدي.

والناس في قبول دعوة التجديد مختلفون، فهناك جماعات أشد مقاومة للتجديد وجماعة أشد تلبية لها. ذلك أن الجماعات التي تكونت حديثاً ولم تتقيد بقيود ثقيلة من الأوضاع كأمريكا تكون أقرب إلى التجديد، ومن كثرت أوضاعهم وقدمت كانوا أشد بطأً في قبول فكرة التجديد، وما مظاهر القلق والاضطراب في الأمة إلا مظاهر حرب بين جديد وقديم، وبعبارة أخرى بين قديم ظهر فساده وجديد لم يرتكز بعد، ومن المظاهر البينة أن مراافق الحياة جديدة وقديمها في كل شعب تتفاعل كما تتفاعل المواد الكيميائية، حتى يتم بينها الانسجام فإذا دخل التجديد في مرفق، فسرعان ما تتفعل بذلك سائر المرافق، كحوض الماء يصب فيه ماء بارد وماء ساخن، فسرعان ما يكتسب البارد السخونة والساخن البرودة حتى يتكون منها ماء في درجة حرارة واحدة، والفرق بين الدعوة إلى التجديد والدعوة إلى المهدي أن الأولى ترتكز على العقل، وعلى تجارب الحياة وعلى الواقع، أما الدعوة الثانية فترتكز على عقيدة دينية فقط بإمام منظر، وأن السلطة السماوية هي التي تقرره وهي التي تؤيده ... وأما فكرة الصوفية في القطب والأبدال، فهي أن الصوفية كما تأثرت بالإسلام تأثرت أيضاً بتعاليم الفلسفه، وخصوصاً الفنوسطية والأفلاطونية الحديثة، وخلاصتها أنه في القرن الثاني الهجري حينما ترجمت كتب الفلسفة إلى اللغة العربية اندس من بعض الجهات أو تسررت فكرة من الأفلاطونية الحديثة من مثل نظرية الفيض الإلهي والفناء في الله، وتأويل آيات القرآن بالرموز المعنوية، فهم إذا سمعوا قوله تعالى مثلاً: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا

الْمُرْسَلُونَ \* إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَبَّوْهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ \* قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْبِرُونَ \* قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ \* أَولُوهَا بِأَنْ لَهَا تَفْسِيرًا بَاطِنِيًّا هُوَ أَنَّ الْمَرْسَلِينَ الْثَلَاثَةُ هُمُ الْرُّوحُ وَالْقَلْبُ وَالْعُقْلُ، وَأَنَّ الْاثْنَيْنِ الْأَوَّلِينَ هُمَا الرُّوحُ وَالْقَلْبُ وَهُمَا الْلَّذَانِ كَذَبُوهُمَا، وَأَنَّ الْثَالِثَ هُوَ الْعُقْلُ كَالْاعْتِقَادِ فِي نَظَرِيَّةِ الْفَنَاءِ فِي اللَّهِ، وَشَرْطُهُمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِدْ أَنَّ تَتَلَاشَى خَصِيَّتِهِ، وَيَنْعَدِمْ شَعُورُهُ بِوُجُودِهِ كَالَّذِي قَالَ: «دَعْنِي أَفْنِي كَمَا تَفْنِي الْأَنْغَامَ فِي الْعُودِ، فَإِنَّنِي إِلَيْهِ نَعُودُ»، وَهُمْ يَدْعُونَ إِلَى فَنَاءِ الْفَرَدِ فِي الدَّارِ الْكُلِّيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلَا يَسْتَطِعُونَ الْمَكَانَ وَلَا الزَّمَانَ أَنْ يَحِدْ هَذِهِ الدَّارَاتِ الْمُتَنَاهِيَّةِ، وَلِلْمُرِيدِ دَرَجَاتٌ فِي الْفَنَاءِ يَتَرَقَّى إِلَيْهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، وَوَسِيلَةً ذَلِكَ عُقْمُ التَّأْمُلِ، وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى الْمَرَاقِبَةِ الْدَّقِيقَةِ لِحَالَاتِ النَّفْسِ، وَيَنْتَهِي بِهِ ذَلِكَ إِلَى غَايَةِ هِيَ أَنْ يَصْبَحَ الْمَتَأْمُلُ فِيهِ شَيْئًا وَاحِدًا، وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الصَّحِيحُ.

هَذِهِ النَّزَعَةُ وَأَمْثَالُهَا هِيَ بَعْضُ نِزَاعَاتِ الصَّوْفِيَّةِ، وَبَعْضُهُمْ يَرَى أَنَّهَا لَا تَتَنَافَى — بَلْ يَجِدُ أَنَّ تَكُونُ — مَعَ التَّزَامِ الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ مِنْ صَلَةٍ وَزَكَاةٍ وَصَوْمٍ وَحِجَّةٍ، وَبَعْضُ الْفَرَقِ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ لَيْسَ إِلَّا وَسَائِلَ لِغَايَةٍ، فَمَتَى حَصَلَتِ الْغَايَةِ فَلَا لَزُومُ لَهَا وَأَنَّ مِنْ حَقِّ الصَّوْفِيِّ أَنْ يَتَخَطَّى كَافَةُ النَّوَامِيسِ الْخَلُقِيَّةِ، وَأَنْ يَخْرُجْ عَلَى الْعُرْفِ الْاجْتِمَاعِيِّ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ انْدَسَّ إِلَى الشِّيَعَةِ الصَّوْفِيَّةِ مَعًا بَعْضُ هَذِهِ التَّعَالَيْمِ، وَتَلَاقَيَا فِي بَعْضِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فَكَمَا اعْتَدَ الْمَهْدِيَّ فِي الْمَهْدِيَّ وَاحْتِفَاءُهُ وَخَرْوَجُهُ؛ لِيَمْلأُ الْأَرْضَ عَدَلًا اعْتَدَ الصَّوْفِيُّونَ أَنَّ هُنَّاكَ مُمْلَكَةً رُوْحَانِيَّةً مُنَظَّمَةً تَنْظِيمًا دَقِيقًا، وَهِيَ وَرَاءَ هَذِهِ الْمُمْلَكَةِ الظَّاهِرَةِ، كَمَا اعْتَدَ الشِّيَعَةُ أَنَّ لَهُمْ أَئْمَةً غَيْرَ الْأَئْمَةِ الرَّسُومِيِّينَ مِنْ أَمْوَيْنَ وَعَبَاسِيْنَ وَغَيْرِهِمْ، وَسُمِيَّ الصَّوْفِيَّةُ رُؤْسَاءُ هَذِهِ الْمُمْلَكَةِ بِأَسْمَاءٍ خَاصَّةٍ كَالْقَطْبِ وَالْغُوثِ وَالْأَبْدَالِ، فَالْقَطْبُ يَمْثُلُ الْإِمَامَ أَوَّلِ الْخَلِيفَةِ وَهُوَ عَلَى رَأْسِ الْمُمْلَكَةِ الْرُّوْحَانِيَّةِ، وَأَحْيَانًا يُسَمُّونَهُ قَطْبًا وَأَحْيَانًا غُوثًا، فَإِذَا سَمُوهُ قَطْبًا فَبِاعتِبَارِ مَرْكَزِهِ فِي الْمُمْلَكَةِ الْرُّوْحَانِيَّةِ وَأَنَّهُ عَلَى رَأْسِهِمْ، وَإِذَا سَمُوهُ غُوثًا فَبِاعتِبَارِهِ مَلْجَأَ الْمَلْهُوفِ، وَقَدْ عُرِفُوهُ بِأَنَّهُ مَوْضِعُ نَظَرِ اللَّهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْطَّلَسَمَ الْأَعْظَمَ مِنْ لَدُنِهِ، وَهُوَ يُسَرِّي فِي الْكُونِ سَرِيَانَ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ وَبِيَدِهِ قَسْطَاسُ الْفَيْضِ الْأَعْمَمِ، وَهُوَ يَتَبَعُ عِلْمَهُ وَعِلْمَهُ يَتَبَعُ الْحَقَّ وَهُوَ يَفْيِضُ رُوحَ الْحَيَاةِ عَلَى الْكُونِ وَمَرْتَبَتِهِ تُسَمِّي الْقَطْبِيَّةَ، وَهُوَ بَاطِنُ رُوحِ الْحَيَاةِ عَلَى الْكُونِ وَمَرْتَبَتِهِ تُسَمِّي الْقَطْبِيَّةَ، وَهُوَ بَاطِنُ رُوحِ النَّبُوَّةِ وَلَا تَكُونُ الْقَطْبِيَّةُ بَعْدَ إِلَّا لِوَرْثَتِهِ، وَلِيُسَوِّا وَرْثَتِهِ لِصَلَبِهِ وَلَكِنَّ وَرْثَتِهِ مَنْ يَسْتَحْقُونَ هَذِهِ الْوَلَايَةَ، وَلَهُ فِي الْمُمْلَكَةِ الْرُّوْحَانِيَّةِ نَوَابٌ يُسَمُّونَ الْأَبْدَالَ،

كل إقليم له بدل خاص يشرف على شئونه، وهكذا رسموا معالم هذه الولاية الروحانية، وقسموا أعمالهم وقالوا: إنها لروحانيتها معصومة كعصمة الأنبياء والأئمة، وهاما في ذلك ما شاء لهم الخيال، فهم يضعون الخطط للعالم الظاهري؛ ليفعل ما يفعل ويترك ما يترك فسموا كثيراً من كبار الصوفية بقطب الأقطاب والقطب الرباني ونحو ذلك. وسموه أيضاً بمجمع البحرين؛ لأنه يجتمع في بحر الوجوب والإمكان، وتجتمع فيه الأسماء الإلهية والحقائق الكونية إلخ ... فكم من القرب بين تعاليم الصوفية وتعاليم الشيعة في هذا الباب، وكذلك بين تعاليم الصوفية وتعاليم المهدوية.

وقد عقد ابن خلدون فصلاً قيماً في المهدى والمهدوية، ذكر فيه الأحداث التي وردت في المهدى مثل ما رواه جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب»، ومثل ما رواه الترمذى عن النبي ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني يواطئ اسمه اسمي وأسم أبيه اسم أبي»، ومثل حديث عن علي عن النبي قال: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»، ومثل ما رواه الحاكم عن أم سلمة قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يذكر المهدى ويقول: هو حق وهو منبني فاطمة»، وعن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ: المهدى مني، أجل الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، إلخ ...»، وقد ضعف ابن خلدون أسانيد هذه الأحاديث، وروى حكايات عن جماعات كثيرة، قالوا: بدعوة المهدية وأن أكثرهم فشل في دعوته فقتل أو هرب، ثم ذكر علاقة فكرة المهدى بالمتصوفة، فقال: «إن المتقدمين منهم لم يكونوا يخوضون في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المواجهة بالأعمال ثم كان كلام الإمامية من الشيعة في تفضيل عليٍّ والقول بإمامته وادعاء الوصية له، ثم حدث بعد ذلك القول بالإمام المعصوم، وجاء آخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بواسطة التناصح، وأخرون يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول، فتسرب هذا إلى الصوفية فقالوا: بالقطب وقالوا: بالحلول كالذى كان من الحلاج وأشباهه، ويقول: إن المتصوفة الذين عاصروا ابن خلدون أكثرهم يشرون إلى ظهور رجل مجدد لأحكام الله ومراسم الحق، ويتحينون ظهوره ...

ومن رأى ابن خلدون أن من نجح من دعوة المهدية يرجع نجاحه لا إلى أسباب دينية، وتنبؤات ونحو ذلك، وإنما يرجع على أن له عصبية قوية تحميه وتدافع عنه، كالذى حدث للفاطميين والقرامطة وغيرهم.

وأما من فشل منهم ففشله يعود إلى ضعف عصبيته؛ ولذلك كان منهم من قتل ومنهم من هرب وذلك وفقاً لنظرية ابن خلدون التي أثبتتها في محل آخر، وهو أن الملك لا يقوم إلا على أساس من العصبية، وعلى هذا قامت دولة بنو أمية لتعصب الأمويين لها، وقامت دولة العباس لتعصب الخراسانيين لها، وهذا هو السر في الحديث المأثور: «الأئمة من قريش»، والسر في ذلك عصبية القرشيين لهم؛ ولذلك تدور العلة مع المعلول فإذا كانت هناك عصبية أقوى من عصبية قريش، فصاحبها أولى كالجنود الأتراك الذين كانوا يتغذبون للمعتصم، ونحو ذلك من الجنود المصطنعة، فالمهدية أيضاً قامت على أساس هذه العصبية، وقد قواها الصاق المهدية بالدين، والناس للدين أكثر انقياداً.

وقد قرأت رسالة للأستاذ أحمد بن محمد بن الصديق في الرد على ابن خلدون سماها «إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون»، وقد فند كلام ابن خلدون في طعنه على الأحاديث الواردة في المهدى، وأثبتت صحة الأحاديث وقال: إنها بلغت حد التواتر، ونقل أحاديث أخرى لم يذكرها ابن خلدون، وكان من رده عليه، أن ابن خلدون قال: إنه لم يخلص من هذه الأحاديث التي وردت في المهدى إلا القليل أو الأقل منه، فسأله في صراحة وماذا تصنع بذلك القليل، هل يؤمن بالقليل إلا إذا اشتهر أو تواتر؟ كلا لا يمكن ذلك؛ لأنه لا يرى هذا الرأي ولا رأه أحد قبله ولا بعده، ثم نقده أيضاً في أنه احتاج في مواضع أخرى من تاريخه بأحاديث أفراد ليس لها إلا مخرج واحد، وفي ذلك المخرج مقال، أتراه إذا وافق الحديث هواه ولو كان حديث آحاد، وإذا لم يوافق هواه لم يقبله لو كان صحيحاً؟ ثم رد عليه في دعواه نسبة رأي بعض الصوفية في الحلول، وأنها مستقاة من الشيعة بأن هذا غير صحيح وأن ابن خلدون لم يفهم معنى الحلول، ثم قال: أنه يؤمن بأحاديث المهدى لما ورد فيه من الأحاديث الصحيحة والحسنة، وأن ابن خلدون مبتدع والمبتدعة أقسام، منهم من كفر بدعنته كالمجسم، ومنكر علم الله للجزئيات، ومنهم من لا يكفر بدعنته وهو من ابتدع شيئاً دون ذلك وربما عدا ابن خلدون من هذا القبيل، وقد أطال في ذلك وخالف ابن خلدون في دعواه الكذب أو الضعف في كل من روى عنه ابن خلدون، وروى عن جماعة من أهل العلم، قالوا شرعاً في المهدى يثبتون وجوده، مثل:

وخبر المهدى أيضاً ورداً ذا كثرة في نقله فاعتصدا

ومثل قول السيوطى:

وَمَا رَوَاهُ عَدْدُ جُمِيعِهِمْ عَلَى الْكَذْبِ إِحْالَةً اجْتِمَاعَهُمْ عَلَى الْكَذْبِ

... إلخ إلخ

فلئن كان ابن خلدون قد قال: بضعف الأحاديث الواردة في المهدي إلا القليل، فإنه اعتمد في رد هذا لا على السند وحده ولكن على مخالفة المتن لحكم العقل أيضًا، والظاهر أن مذهب ابن خلدون قبول خبر الواحد إذا أيده حكم العقل، ورفض الأحاديث الكثيرة إذا لم يؤيدها العقل، وهذه بعینها كانت طريقة كبار المعتزلة كالنظام وأبى الهذيل العلاف، فلهم في الحديث طريقة خاصة غير طريقة المحدثين، فالمحدثون يعتمدون في النقد والإثبات على السند وحده، أما المعتزلة وعلى رأيهم ابن خلدون فيعتمدون على نقد السند، ويحكمون العقل في المتن، ولا سيما أن كل الحسابات التي بنيت على ظهور المهدي في وقت معين، وفي مكان معين استنادًا على اليازيرجات والملامح والتنبؤات، وحساب الجمل ظهر كذبها، ولم يصح منها شيء فكل حركة من حركات المهدي، سواء منها ما نجحت وما لم تنجح قد قضى عليها، إما في مدها أو بعد قرون قصيرة أو طويلة، وما نجح منها كالفاطميين والقرامطة والحساشين لم يملئوا الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً على حساب دعواهم، بل كان مثلهم مثل غيرهم وكانوا في مدة حكمهم محتاجين هم أنفسهم إلى مهدي آخر يذهب بظلمهم، ونحن نعلم من التجارب أن الله جعل للعدل والظلم قوانين اجتماعية كالقوانين الطبيعية للأشياء، والقوانين الاجتماعية هذه ليس منها إمام مستتر يعيش مئات السنين، وهو في استئثاره يحرك أتباعه ليزيلوا المظالم، إنما الطريق الطبيعي هو ظهور مصلح اجتماعي يشعر الناس بالألم من الظلم، والطموح إلى العدل، فيضطهد ويعذب ولا يزال أتباعه يكترون، وكلما عذب أمام الناس ازدادت دعوته قبولاً، حتى يقوى فيزيل المظلمة أو المظالم التي دعا إلى إزالتها، ويحل الصالح محل الفاسد.

وقد قرأتُ رسالة أخرى في هذا الموضوع عنوانها «الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة» لأبي الطيب بن أبي أحمد بن أبي الحسن الحسيني، ذكر فيها أيضًا أقوال ابن خلدون ورد عليه، وعند أقواله زلة زلها وليس من التحقيق في شيء، واستخلص أخيراً أن المهدي يظهر في آخر الزمان، وإن إنكار ذلك جرأة عظيمة وزلة كبيرة.

وأما السنّيون فعقيدتهم في المهدي أقل خطراً لأنهم يعتقدون أنه من أشراط الساعة كالمسيح والدجال، وأنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين،

ويظهر العدل ويتبعه المسلمون، ويستولي على المالك الإسلامية ويسمى المهدى، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة على أثره، ثم ينزل عيسى فيقتل الدجال، ثم يأتي عيسى بالمهدى إلى غير ذلك.

ولما كانت الساعة أو آخر الزمان غير معلوم الوقت كان كل خارج يدعى أنه المهدى، وأنه علام آخر الزمان إلى غير ذلك، وقد كتب الإمام الشوكاني كتاباً في صحة ذلك سماه التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال وال المسيح.

وأنا من يرى رأى ابن خلدون في ضعف هذه الأحاديث المهدوية، وفي أن من نجح من المهديين، إنما نجح لكثره أتباعه وقوتهم، وفشل من فشل لقلة أتباعه وضعفهم، ولستنا ننصر ابن خلدون لسننته ولا نضعف خصومه لشيعتهم.

إنما نقبل ما نقبل ونرفض ما نرفض للحق وحده، حسبما نعتقد وكلام ابن خلدون أقرب للعقل، ولئن كانت الأحاديث المروية عن المهدى قد ضعفها ابن خلدون لسندتها، فهناك وجه آخر لتضعيتها، وهو عدم ملاءمتها للعقل إذ كيف يعقل إمام معصوم يخرج في زمان قد حدد، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً، بل إن الواقع أيضاً ينافي ذلك، حتى إن من نجح من دعوة المهدية، وأسس دولة لم يحقق عدلاً ولم يرفع ظلماً، بل كان التأثرون والمثور عليهم على دين واحد وسياسة واحدة، كما بينا ذلك.

وقد نظم الصوفية – كما قال ابن خلدون – مملكة باطنية على نظام المملكة الظاهرية، ولقبوا أصحابها أقاباً منهم الأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء وعلى رأسهم القطب، وهم يرتقون في المناصب كما يرتقي الموظفون، وهذا القطب يعلم ما كان وما يكون وقد سئل أحمد ابن تيمية: «هل في الوجود طائفة من أولياء الله يقال لها: الأوتاد وأخرى يقال لها: الأبدال وغيرها يقال لها: النقباء، وخلافها يقال لها: النجباء، ورئيس على الكل يقال له: القطب الغوث الفرد الجامع؟ فقال: إن إطلاق هذه الأسماء من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، بل ذلك كله كذب وضلال لا أصل في كتاب الله، ولا سنة رسول الله ﷺ، ولا قاله أحد من سلف الأمة، ولا من الشيوخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ويقول: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنِّي خَرَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، ويقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلُكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنَّيَ السُّوءُ﴾.

وقد قال الوهابيون بقول ابن تيمية هذا، وقد أقام بعض الصوفية ماراسيم كمراسيم الدولة الظاهرية، وقالوا: إنه تجب لصحة القطب أن يباع في دولة الباطن، كما يباع

الخليفة في دولة الظاهر، وقد قال ابن الجوزي: إن أحاديث البدال كلها موضوعة، وهؤلاء البدال الذين يزعمون أنهم أربعون كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلاً، وقد ربطوا هذه الأخبار عن الأقطاب والبدال وغيرهم بأخبار الخضر، إذ كان يعلم علم الباطن على حين موسى — عليه السلام — كان يعلم علم الظاهر، وزعموا أنه حي مستتر في كل زمان!

وأخيراً نقرأ في الدولة العثمانية نظام الفتوة وتعاون بعضهم مع بعض وفرقة البكتاشية والنقشبندية، ونحو ذلك من نظم سرية وتعاليم خفية، فنسمع منها صدى لأنظمة الإسماعيلية ودعواتهم، بل ربما كانت صدىًّا لتأثير المبادئ الإسماعيلية في أوروبا فهناك ما يشبه تعاليمهم في نظم الأديرة والجمعيات، بل ربما كان للقرامطة تأثير بين في نظم الرهبنة اليسوعية، وربما تكشف الأيام عن ذلك.

وقد كان من مبادئ القرامطة فرض ضرائب على الفقراء؛ لتوزع على المرضى والمحاجين منهم عند الضرورة وهو شيء يشبه عمل النقابات الحديثة، وكم نقل الصليبيون في حروبهم مع المسلمين من أنظمة، فلعل منها النظام الإسماعيلي والديمقراطي الذي ساد الجمعيات الأوروبية.

من هذا نرى كيف لعبت المهدوية في تاريخ الإسلام، وإصابته مع الأسف بمصيبيتين كبيرتين:

إداههما: إضعاف شأن المسلمين إضعافاً كبيراً بهذه الثورات المتتالية.

وثانيتهما: بنشر هذه الأساطير والأوهام بينهم مما أضعف عقولهم، وهم ضرaran كبيران.

وكتثيراً ما يعتقد الناس الاتصال فعلًا بالمهدي، وتلقي تعاليمه كالذى رواه الشعراوى من أن هناك اجتماعات روحية صوفية، وأنه كان أحد أفراد هذه الجمعية وهو صديق للشعراوى وأسمه الشيخ حسن العراقي أفضى إليه بأنه هو في حادثه كان يقيم في دمشق، وأنه أضاف المهدي أسبوعاً عنده وأخذ عنه أساليب الذكر والزهادة، وأنه يستفسر من المهدي عن كل ما أشكل عليه، وأن هذا الاتصال سبب له طول العمر، فقد كان سن العراقي عندما تحدث بهذا الحديث يبلغ من العمر ١٢٧ سنة.

وقد ساح بعد ذلك إلى الهند والصين، ثم رجع إلى مصر ومنعوه من دخولها، وهناك قصص كثيرة حول الاتصال بالمهدي والأئمة والمخفيين، وقد كانت هذه الفكرة تملاً أذهان الناس حتى استُفْتِي فيها ابن حجر الهيثمي، وكان السؤال يدور على أنه سُئل

عن طائفة يعتقدون في رجل مات منذ أربعين سنة أنه المهدي المنتظر الموعود بظهوره آخر الزمان، ويعتقدون أن من أنكر مهديته فقد كفر بما قوله في ذلك، وقد سبب ذلك أنه وضع كتاباً في أحاديث المهدي والمهدوية سماه «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر».

وقد كان من جراء ذلك أن ألقى درساً كبيراً في هذا الموضوع في مكة حين حج، وقد ذكر بعض المستشرقين في كتاب ألفه عن فرق الإسلام أن بعض رجال الهنود ظهروا في الهند، وأدّعُوا المهدية بينهم رجل يدعى الشيخ محمد الجونبوري دعا هذه الدعوة، ونفي من بلاد الهند، وتوفي سنة ١٥٥٠، إلى كثير من أمثال ذلك.

وعلى الجملة فقد كانت هذه الحركة المهدوية حركة دائمة لا تنتقطع في إثارة الفتنة واللقالق، ولم كان قد من الله على المسلمين بفنائها لتغير وجه تاريخهم، ونرجو أن التنبه للحديث والوعي القومي الكبير يقضي على هذه الأساطير.

وربما كانت ثورة المعرى الفكرية سببها ما شاع في أواسطه من الدعوة إلى الإمام والمهدي المنتظر، وتلقي التعاليم عنه، فثار أبو العلاء على ذلك وقال: إنه لا يؤمن بإمام ولا مهدي وإنما يؤمن بالعقل؛ ولذلك أكثر في تقدير العقل وإحلاله أعلى مكان، وقال في ذلك أبياتاً كثيرة من أوضح ذلك قوله:

ناطق في الكتبة الخرساء	يرتخي الناس أن يقوم إمام
مشيراً في صبحه والمساء	كذب الظن لا إمام سوى العقل

فالإمام الذي يشير إليه هو ما كان يشاع في محيطه من مهدي منتظر، فقال: كذب الناس إنما الإمام هو العقل وقوله:

إلا وعندني من أخبارهم طرف	ما كان في هذه الدنيا بنو زمن
ولا أفادوا لا طابوا ولا عرفوا	يخبر العقل أن القوم ما كرموا
ولا يفوزون إن جوزوا بما اقترفوا	عاشوا طويلاً وما جوا في ضلالتهم

وقوله:

خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه  
ولا تطفئوا نور الملكي فإنه  
ولا يرجون غير المهيمنين راج  
ممتع كل من حجي بسداد

وقوله:

ساس الأنام شياطين مسلطة  
من ليس يحفل خمس الناس كلهم  
في كل مصر من الوالدين شيطان  
إن بات يشرب خمراً وهو مبطان

وقال:

رويدك قد غترت وأنت حر  
يحرم فيكم الصهباء صبحاً  
بصاحب حيلة يغط النساء  
ويشربها على عند مساء

... إلخ.

فهو يصور قيام الدعاة إلى إمام مستتر، وظلم الناس وفسادهم، ويدعو إلى استعمال  
العقل كما أمر الله.

وأخيراً أطلقت في مصر كلمة المهدي على من أسلم، وكان هو أو أبوه نصرانِيًّا ويسمونه  
في سوريا المهدي بدل المهدي، وذلك كالشيخ المشهور الشيخ محمد الحنفي المهدي، وقد  
كان من قوم أقباط فأسلم وتعلم في الأزهر وما زال يتفقه حتى ولِيَ الجامِع الأزهر،  
وكان يتدخل في الأمور، واتصل بالفرنسيين عند دخولهم، ولما رتبوا الديوان الذي يجري  
الأحكام بين المسلمين جعلوه في ديوانهم، وكان هو المشار إليه، وكان الناس يقصدونه في  
الحوائج ويمشون حوله وأمامه وتقبل شفاعاته، ويأتي إليه الفلاحون بالهدايا من أغذان  
وسمن ونحو ذلك وأثرى ثراءً عظيماً، واستمر في مشيخة الأزهر والتدريس فيه، واختاره  
محمد علي باشا ليسافر مع ابنه طوسون إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين، لما رجع انتقض  
عليه الأزهر، فعزل إلى آخر ما كان.

ومن لقب بهذا اللقب شيخنا الأستاذ محمد المهدى، وكان أستاذًا لنا في مدرسة القضاء وأحد تلاميذ الشيخ محمد عبد المقربين إليه، وقد كان من أصل نصرانى؛ ولذلك كان يسمى الشيخ محمد المهدى زيكو.

هذه الثورات التي ذكرناها هي النتائج الملاهية لفكرة التشيع وفكرة المهدية. وهناك نتائج بعيدة المدى، فهناك أفكار شيعة ومهدوية تسربت إلى الفنون والعلوم، حتى يصعب على الباحث المدقق استخراجها، نجدها في التفسير وخاصة التفسيرات الرمزية لبعض الآيات القرآنية، وفي الأحاديث التي وضعت بإحكام بعض أحاديث رواها الحاكم وغيره في أخبار المهدى، وموعد ظهوره وكونه من أشراط الساعة وغير ذلك، وهناك الآراء المنسوبة على التصوف وتطبيقاتهم فكرة المهدى على فكرة الأقطاب، وكأفكار الحلاج في الحلول تشبّهًا لما قاله المهديون في الأئمة.

وهناك تعاليم القرامطة والفااطمية في أشعار المتنبي وابن هانئ وغيرهما. وكلما جد الباحثون أمكنهم بعد التدقّق أن يربطوا بين أشعار للشعراء، ومعان للتشيع قريبة الشبه. وإن الفنون في بعض الأحيان تتنزع في بعض تصميماتها إلى فن فارسي شيعي كالمحاريب المقرنصة وكطابع الخشب المحفور، ورسم النباتات والحيوانات التي تتعارك، أما التاريخ فقد عبّث به كل العبث فترى نزعة مهدوية شيعية تلون الأحداث تلوينًا زاهيًا بديعًا، ومن سني يلونها تلوينًا أسود قائمًا، كالذى رأينا في نسب الفاطميين إلى فاطمة، منهم من يؤمن بصفتها كل الإيمان، ومنهم من ينكره كل الإنكار، وكل يوم يستخرج الباحثون تسرب القضايا الشيعية إلى العلوم والفنون المختلفة، وحتى النحو نرى فيه هذه النزعة أيضًا كنسبة وضعه إلى أبي الأسود الدؤلي عن علي بن أبي طالب، ومثل تمثيلهم بقولهم: قضية ولا أبا حسن لها إلخ ...

وعلى كل حال فعل لل المسلمين عبّة من هذا التاريخ الطويل المخزن، وتطور الأحوال يدلنا على أن الزمان قد تغير، وتغيرت العقليات فأصبح لا يجوز على العقول أمام مختلف أو مهدي منتظر، وحل القادة والمصلحون والزعماء محل الأولياء وحل الإقناع بالحجج محل الإرهادات والخرصات.

والدعوة إلى الإصلاحات محل التنبؤات والتكتنفات، والاعتماد على اليازوجات والتنجيمات، وكلما كبر العقل وزاد الوعي قلت الأوهام. إن عقلية الجيل الحاضر التي تتحرى الأخبار وكشف الأ Starr، والإصغاء إلى الرأي وما يؤيده وما يعارضه لا يمكن أن تؤمن بإمام معصوم يعيش في الخفاء، ويوحى من

وراء ستار بالأوامر والنواهي؛ ولذلك كفر أبو العلاء الذي تقدم ز منه بالإمام المعصوم وقال: لا إمام إلا العقل ولا سلطان إلا سلطان العقل، وأشاع في لزومياته عدم تقديس الإمام وأفاض في ذلك كما رأينا إذ رأى ما حوله من البلاد يخضع للحمدانيين التابعين للفاطميين، ويخضع لداعي الدعاة وقول الدعاة بإمام معصوم، فقابل الإلحاد بالإلحاد والدعوة إلى الخفاء بالدعوة إلى المكشوف.

والحق أنني لم أقصد ببحثي هذا إلا الحق لا تأييده لسنين ولا حطّا من شيعيين فكما نقدت الشيعيين في دعوتهم وسلوکهم أيام مكن لهم في الحكم نقدت الخلفاء السنين في اضطهادهم للعلويين، والتنكيل بهم تنكيلاً شديداً، فلا فرق عندي بين مذهب ومذهب، وإنما الحق أردت وبحثت بحثاً تاريخياً بقدر ما يمكنني من التحقيق، وقد يكون هناك لوم عليٍّ في أنني اعتمدت في أكثر ما اعتمدت على الكتب السننية التي وصفت عقائد الشيعة. وعذرني في ذلك أن المصادر الأصلية عن الإسماعيلية والقرامطة وتعاليم الفاطميين والموحدين قليلة بالنسبة لي. ومهما كانت عقidiتهم فلا ينكر منصف نقدم في سلوكهم، خصوصاً وأنهم دعاة العدل المنفرون من الظلم.

وأحب أن أفرق بين باحث يبحث المسائل من حيث تاريخها، وتأثيرها السياسي والاجتماعي وبين داع يخطب في تأييد مذهب أو نقه، فالمؤرخ لا يهمه ماذا فعل أهل هذا المذهب وهل هم على حق أو باطل، إنما يهمه البحث التاريخي مهما كانت النتائج سوداء أو بيضاء، وإذا نقد فيجب أن ينقد إما لضعف سنته أو غلطة في الاستنتاج، ولا ينقد على أساس العواطف التي تواضع أهل المذهب عليها. أما الداعي فإنما يدعو لغاية معينة، ويحاول أن يفسر ما كان ضده على حسب ما يهواه لا على حسب الحق؛ لهذا أسف كل الأسف إذا كان في كلامي في هذه الرسالة، أو في فجر الإسلام وضحاه وظهره ما يغضب إخواننا الشيعيين، وأقرر لهم أن هذه النتائج نتائج تاريخية لا نتائج دعائية فليتقربوا إلى ما هي عليه وليس أحب إلى نفسي مع هذا من القضاء على العداوة بين السنين والشيعيين. فما أحوجنا إلى الصدقة خصوصاً في هذا الزمن، ومن أجل ذلك رحبت بالانضمام إلى جماعة التقرير؛ لأنه غاية ما أتمنى، ولست أريد إثارة فتن جديدة إلى الفتنة القديمة، وإنما أردت أن أبين وجه الحق للعلماء والباحثين.

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

جدول تاريخي لأهم الأحداث التاريخية المتصلة بفكرة المهدوية

سنة بالتاريخ الميلادي
خلافة علي 661-656
مقتل الحسين في كربلاء 680
ثورة المختار في العراق 687-685
ثورات العلوين في العراق والمدينة 762-762
ظهور القرامطة 860
عبد الله المهدي وبده الدولة الفاطمية 910
القرامطة يدخلون مكة ويحملون الحجر الأسود 928
سيف الدولة الحمداني صاحب حلب 967-944
خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي 1021-996
وزارة نظام الملك 1092-172
دول الموحدين 1130-1107
قضاء صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية 1171
هولاكو يستولي على بغداد ونهاية الدولة العباسية 1258
استيلاء الوهابيين على الأحساء 1707
استيلاء الوهابيين على مكة والمدينة 1804-1803
تأسيس السنوسية في طرابلس الغرب 1843
ظهور الباية 1844
الفتك بأتباع الباب 1850
ظهور المهدي في السودان 1870
المهديون يخضعون مقاطعة خط الاستواء 1888
كتشنر يقضي على المهديين في أم درمان 1896

